

(٧)

المرأة ودورها في الحياة

الخطبة الأولى :

أما بعد ، فيا أيها الإخوة المسلمون :

شهدت قطر في الأيام الماضية ندوةً عالميةً عن المرأة ودورها في السياسة والتنمية . ومن حقَّ المرأة بعد أن تعلَّمت وعلمت أن يكون لها دورها في السياسة ، وفي تنمية البلاد ، وفي مجالات الأنشطة المختلفة . فقد تعلَّمت المرأة كما تعلَّم أخوها الرجل ، بل تفوَّقت عليه في كثير من الأحيان ، في الشهادات الثانوية نجد الفتاة تحصد المراتب الأولى من مراتب المتفوقين ، وفي جامعة قطر وجدنا الطالبات أكثر عددًا ، وأشدُّ حرصًا على التعلُّم ، وأكثر تفوقًا .

حقُّ المرأة في المشاركة في الحياة العامة :

ومن هنا كان من حقَّ المرأة أن يكون لها دورها في الحياة العامة ، وهذا لا يمنع منه الإسلام . بل الإسلام يُرحِّب بأن تكون المرأة إلى جانب شقيقها الرجل في مناشط الحياة العامة ، ما دامت ملتزمة بالضوابط الشرعية .

القرآن الكريم يقول : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (التوبة: ٧١) ، في مقابل قوله : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾ (التوبة: ٦٧) . فإذا كان شأن مجتمع المنافقين : أن المنافقات بجوارهم ، يأمرن جميعًا بالمنكر ، وينهون عن المعروف . فمجتمع المؤمنين : المؤمنات بجوار المؤمنين ، والجميع يقومون بدور واحد هو الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإقامة دين الله في الأرض .

النبي ﷺ يقول : « النساء شقائق الرجال »^(١) . فالمرأة شقيقة الرجل ، والقرآن الكريم يقول : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ﴾ (آل عمران: ١٩٥) ، أي : المرأة من الرجل ، والرجل من المرأة ، هو يكملها وهي تكمله ، لا يستغني الرجل عن المرأة ، ولا تستغني المرأة عن الرجل ، هذا ما يقرره القرآن . فليس هناك خصومة ولا عداوة بين الرجل والمرأة ، كما تصوّر ذلك بعض الفلاسفات والديانات ، لا ، ﴿ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ﴾ (آل عمران: ١٩٥) .

دور المرأة في عصر النبوة :

ومن ينظر إلى المرأة في عصر النبوة ، يجد أن المرأة وقفت مع الرجل من أول يوم ، فأول صوت ارتفع بتأييد دعوة محمد ﷺ ، لم يكن صوت رجل ، بل كان صوت امرأة ، إنه صوت زوجه خديجة ﷺ . وأول دم أريق في الإسلام ، أول شهيد في تاريخ الإسلام ، لم يكن رجلاً ، بل كان امرأة : سمية (أم عمار) وزوج ياسر رضي الله عنهم جميعاً .

كان للمرأة دورها منذ بداية التاريخ الإسلامي ، شاركت المرأة في نصره الدعوة الإسلامية ، وشاركت في بناء الحضارة الإسلامية .

المرأة هاجرت مع زوجها إلى الحبشة . كانت أسماء بنت عميس مع زوجها جعفر بن أبي طالب في الحبشة ، وظلّوا هناك حتى جاؤوا في السنة السابعة للهجرة من الحبشة إلى المدينة .

كانت المرأة ممن بايع النبي ﷺ بيعة العقبة قبل الهجرة مع الأوس والخزرج . وكانت المرأة - بعد الهجرة - ممن قاتل مع رسول الله ﷺ في الغزوات ، حتى

(١) رواه أحمد (٢٦١٩٥) ، وقال مخرجه : حديث حسن لغيره ، وهذا إسناد ضعيف لضعف عبد الله وهو ابن عمر (بن حفص بن عاصم بن عمر) العمري ، وأبو داود (٢٣٦) ، والترمذي (١١٣) ، وابن ماجه (٦١٢) ، ثلاثهم في الطهارة ، عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٩٨٣) .

ترجم الإمام البخاري في صحيحه (باب غزو النساء وقتالهن) ، وذكر أمهات المؤمنين والصحابيات اللاتي شاركن في غزوات النبي ﷺ .

وَمَنْ منا لا يذكر نسيبة بنت كعب (أم عمارة) الأنصارية، وقتالها في غزوة أحد، وأن النبي ﷺ قال : « ما التفتُ يمينًا وشمالاً إلا وأراها تقاتل دوني »^(١)!

المرأة كان لها دورها في عهد النبوة ، ونزل القرآن في عدة سور ليتحدث عن المرأة ، وبعض السور أسماؤها تحمل اسم المرأة أو وصفها ، فهناك سورة (مريم)، وهناك سورة (المجادلة) : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ (المجادلة: ١) .

وقد رأى بعض الصحابة امرأة تسير مع عمر وتطيل الكلام معه ، فاعترض رجل وقال : يا أمير المؤمنين ، حبست رجالات قريش على هذه العجوز؟ قال : ويحك أتدري من هذه ؟ قال : لا . قال : هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات ، هذه خولة بنت ثعلبة ، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ، ما انصرفت حتى تقضي حاجتها^(٢) . ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ (المجادلة: ١) .

هناك سورة (المتحنة) : ﴿ يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ (المتحنة: ١٠) ، وفي هذه السورة نفسها بيعة النساء للنبي ﷺ في يوم الفتح : ﴿ يَأْتِيَا النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (المتحنة: ١٢) .

(١) ابن سعد في الطبقات (٤١٥/٨) ، والإصابة في تمييز الصحابة (٢٦٦/٨) .

(٢) رواه ابن أبي حاتم في التفسير (١٨٨٤١) ، وقال الذهبي في العلو : هنا إسناد صالح فيه انقطاع ، أبو يزيد لم يلحق عمر (١٦٩) .

كان للمرأة دورها في الحياة الإسلامية .

تراجع دور المرأة في الحياة الإسلامية :

ثمّ جاء دور التراجع ، ترأّجَع دور المرأة مع تراجع الحضارة الإسلامية وتخلّف المسلمين ، وشاعت أحاديث موضوعة مثل : « لا تعلّمونهنّ الكتابة »^(١) ، ومثل : « شاوروهنّ وخالفوهنّ »^(٢) ، ومثل : « دفن البنات من المكرمات »^(٣) . . . إلخ^(٤) .

وشاعت كذلك فتاوى متشدّدة منعت المرأة أن تذهب إلى المسجد للصلاة! في الأول أجازوا للمرأة الكبيرة في السنّ أن تذهب إلى المسجد ، ثم جاء المتأخرون من الفقهاء وقالوا : لا ، حتى المرأة العجوز لا يجوز أن تذهب إلى المسجد ، كما يقول الشاعر :

لكلّ ساقطة في الحيّ لاقطة وكلّ كاسدة يوماً لها سوق!
المرأة العجوز لها رجل (شايب) ينظر إليها ، فمنعاً للفتنة - كما قالوا - منعوا النساء من الذهاب إلى المساجد! وحُرِّمت المرأة من الذهاب إلى المساجد في أكثر البلاد الإسلامية .

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٥٧١٣) ، والحاكم في التفسير (٣٩٦/٢) ، وصحح إسناده ، وقال الذهبي : بل موضوع وأفته عبد الوهاب ، قال أبو حاتم : كذاب ، والبيهقي في الشعب باب تعظيم القرآن (٢٤٥٣) .

(٢) قال السخاوي المقاصد الحسنة : لم أره مرفوعاً . . . وقد استشار النبي ﷺ أم سلمة كما في قصة صلح الحديبية ، وصار دليلاً لجواز استشارة المرأة الفاضلة لفضل أم سلمة ووفور عقلها (٥٨٥) . وقال الألباني في السلسلة الضعيفة : لا أصل له (٤٣٠) .

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٣٦٦/١١) ، والأوسط (٢٢٦٣) ، وأبو نعيم في الحلية (٢٠٩/٥) ، وابن الجوزي في الموضوعات (٢٣٦/٣) ، وقال : هذا الحديث لا يصح عن رسول الله صلي الله عليه وسلم ، وقال (بعد أن ذكر عدة روايات للحديث) : وسمعت شيخنا عبد الوهاب بن المبارك الأنماطي يحلف بالله عزوجل : أنه ما قال رسول الله ﷺ من هذا شيئاً قط ، وأقرّه الذهبي في تلخيص الموضوعات (٩٣٥) ، والألباني في الضعيفة (١٨٦) .

(٤) مثل أحاديث : « طاعة المرأة ندامة » ، « هلكت الرجال حين أطاعت النساء فإن في خلافهنّ البركة » ، « للمرأة ستران : القبر والزوج » ، « نعم الصهر القبر » ، « مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الغراب بين مائة غراب » .

قد سمعنا أنَّ في السودان بعض النساء يعشن ويمتن ولا يركعن لله ركعة ،
لماذا؟ لأنهنَّ لم يجدنَّ مَنْ يَعْلَمُهُنَّ .

حجة المانعين للمرأة من الحضور إلى المسجد :

الفقهاء الذين منعوا المرأة من المسجد قالوا : علي أبيها أن يُفقهها في الدين ،
أو على زوجها أن يَعْلَمَهَا الدين ، ولكن الزوج لم يَعْلَمْ ، والأب لم يُفقهه ، لأن الأب
- أو الزوج - نفسه كان يحتاج إلى مَنْ يَعْلَمُهُ ويفقهه ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، وقد
ضلَّ مَنْ كانت العميان تهديه .

حُرمت المرأة من العبادة ، ومن العلم .

ذهبت إلى بعض البلاد الإسلامية - في الهند وباكستان وبنغلادش - وحاضرتُ
الرجال في المساجد ، ولم أجد امرأة واحدة ، فقلتُ لهم : أين النساء؟ قالوا :
المذهب الحنفي يمنع وصول المرأة إلى المسجد! قلتُ : هذه فتوى قديمة ، المرأة
الآن ذهبت إلى المدرسة ، وإلى الجامعة ، وإلى السوق ، وسافرت في الطائرات ،
فلماذا تمنع من المسجد وحده؟ الفقهاء قالوا : على الأب أن يَعْلَمَهَا ، هل حينما
ستعود إلى بيتك ستقصُّ عليها هذه المحاضرة التي سمعتها ؟ قال أحدهم : لا .
قلتُ : فلماذا تحرمونهنَّ؟ أبو حنيفة هذا هو الذي أجاز للمرأة أن تكون قاضية في
غير المسائل الجنائية ، وأبو حنيفة هو الذي أجاز للمرأة أن تُزوِّج نفسها من كفاء
ولو بغير إذن وليها ، فلماذا تتركون هذا ، وتأخذون هذا الجانب المتشدد من
المذهب ، الذي قيل في زمن معين؟ ينبغي أن يتغيَّر إذا تغيَّر الزمن ، فالفتوى تتغيَّر
بتغيُّر الزمان والمكان والحال .

هكذا رأينا المسلمين في عصرنا ، مع أن المرأة في عصر النبوة كانت تذهب
إلى المسجد في الصلوات الخمس ، وفي صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولم يكن
الطريق مرصوفاً ولا مضاءً ، وقال النبي ﷺ : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله »^(١) .
يعني إذا خرجت المرأة تريد أن تذهب إلى المسجد للصلاة ، أو لسدرس العلم ،
أو لموعظة ، فلا يجوز لزوجها بحال أن يمنعها .

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الجمعة (٩٠٠) ، ومسلم في الصلاة (٤٤٢) ، كما رواه أحمد
(٤٦٥٥) ، وأبو داود في الصلاة (٥٦٦) ، وابن ماجه في المقدمة (١٦) ، عن ابن عمر .

تقاليد غريبة عن الإسلام :

شيوع هذه الفتاوى ، وشيوع تقاليد غريبة عن الإسلام في كثير من المجتمعات ، حتى إنَّ الرجل ليستتكمف ويخجل أن يذكر اسم امرأته ! كأنَّ اسم المرأة عيب ، أو عورة . يقول : الجماعة ، العيال ، الأولاد ، الأهل ، الزوجة ! ونحن نقرأ : عن عائشة بنت أبي بكر ، وعن حفصة بنت عمر ، عن ميمونة بنت الحارث ، رضي الله عنهنَّ ، ولا حرج في ذلك ، ونعرف أسماء بنات النبي ، وزوجاته ، وعمَّاته ، وأمه . بل بعضهم إذا ذكر اسم المرأة يقول : أعزَّك الله ، كأنَّ اسم المرأة نجس أو رجس من عمل الشيطان! هذا ما أنزل الله به من سلطان .

ضياح قضية المرأة بين الإفراط والتفريط :

إنَّ قضية المرأة ضاعت بين الإفراط والتفريط ، ككثير من قضايانا الفكرية والاجتماعية الكبرى ، أضاعها الغلوُّ والإفراط من ناحية ، وأضاعها التسبُّب والتفريط من ناحية أخرى .

ومن قديم اختلف الفلاسفة والحكماء والشعراء في قضية المرأة ، حتى قال بعض الحكماء : المرأة شرٌّ كُلُّها ، وشرُّ ما فيها أنه لا بدَّ منها^(١)! والعجيب أنَّ بعضهم ينسب هذا إلى عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه . قلتُ له : هل يقول هذا عليُّ ابن أبي طالب عن زوجته (فاطمة الزهراء) سيِّدة نساء العالمين؟ أو عن بناته أم كلثوم وزينب وفاطمة؟ مستحيل أن يقول ذلك ، فهذا ضدُّ القرآن ، وضدُّ السنَّة .

أحد الشعراء يقول :

إنَّ النساء شياطين خُلِقن لنا نعوذُ بالله من شرِّ الشياطين
فهنَّ أصل البليات التي ظهرت بين البرية في الدنيا وفي السدين
وردُّ عليه الآخر بقوله :

إنَّ النساء رياحين خُلِقن لنا وكلُّنا يشتهي شمَّ الرياحين

قلتُ لمن قال ذلك : أنا أعارض الشاعرين ، أعارض الأول والثاني ، فالنساء رياحين ، ولكنها لم تُخلق لنا ، ما معنى أنَّ المرأة خُلقت للرجل ؟ المرأة خُلقت

(١) مستحيل أن يخلق الله شرّاً كاملاً (القرضاوي) ، انظر كتاب الشيخ القرضاوي : فتاوى معاصرة (٤٢١/١ - ٤٢٥) ، طبعة دار القلم ، الكويت .

لنفسها ؛ لتقوم برسالة كما يقوم الرجل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ أُنثَىٰ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦) ، رجالاً ونساء . فالمرأة لم تخلق للذة الرجل ، أو لخدمة الرجل . بل الفقهاء يقولون : إن المرأة لا يجب عليها خدمة زوجها . معظم فقهاء المذاهب الأربعة يقولون : تتفضل هي على زوجها فتخدمه ، فذلك من مكارم أخلاقها ، ومن العشرة بالمعروف .

والشاعر الآخر يقول :

كُتِبَ القتل والقتال علينا وعلى الغايات جرُّ الذبول^(١)

مشاركة النساء في الجهاد :

لكن النساء في عصر النبي عليه الصلاة والسلام قاتلن وقتلن ، والقرآن يقول : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ (آل عمران: ١٩٥) ، وهذا من الفريقين ، من الجنسين ، لأنه قال : ﴿ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا ﴾ (آل عمران: ١٩٥) ، أي : من الرجال والنساء جميعاً .

فهذا الذي قاله الشاعر أمر مرفوض .

ويقول الآخر ، وقد تولت إحدى النساء منصب الكتابة في الدولة :

ما للنساء وللكتابة والعمالمة والخطابة؟
هذا لنا وهن منا أن يبتن على جنابة^(٢)

النظرة الدونية للمرأة :

هذا ينظر نظرة دونية للمرأة ، كأن المرأة خلقت للشهوة والغريزة فقط . لا ، الشهوة والغريزة مشتركة بين الرجل والمرأة ، القرآن يقول : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (البقرة: ١٨٧) ، فلماذا يقال هذا عن النساء ؟

(٢) من شعر البسامي .

(١) من شعر عمر بن أبي ربيعة .

شاعت نظرةٌ دُونِيَّةٌ مؤسفةٌ عن المرأة في كثير من البلاد ، وظهرت في تفاسير بعض المفسرين ، وفي أقوال بعض الفقهاء ، وهذه النظرة ليست من الإسلام في شيء .

ما يريده المُفْرَطُونَ من المرأة :

ضاعت قضية المرأة بين المُفْرَطِينَ والمُفْرَطِينَ^(١) .

هناك المُفْرَطُونَ الذين أرادوا من المرأة المسلمة أن تتَّبع المرأة الغربية شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع . لا يريدون لها أن تحتفظ بشخصيتها الإسلامية ، بقيمتها ، بشريعتها ، بضوابطها ، وإنما يريدون لها أن تتَّسَّب ، وأن تخرج كاسيةً عاريةً ، كما قال النبي ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس . ونساء كاسيات عاريات ، مُميلات ماتلات ، رؤوسهن كأسنة البُخْتِ المائلة - كأنما يصور هؤلاء اللائي يلبسن الباروكات - لا يدخلن الجنة ، ولا يجذن ريحها ، وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا^(٢) »

هذا صنف المُفْرَطِينَ .

ما يُريده المُفْرَطُونَ من المرأة :

وصنف آخر - وهم المُفْرَطُونَ - يريد أن تظلَّ المرأة حبيسة البيت لا تخرج منه ، حتى إن بعضهم قال ، ويا لهول ما قال : إنَّ المرأة الصالحة لا تخرج من بيتها إلا مرتين : مرَّةً من بيت أبيها إلى بيت زوجها ، والأخرى من بيت زوجها إلى قبرها !

هذا عجيب ، مع أن القرآن يجعل الإمساك في البيوت والحبس فيها عقوبة للمرأة الزانية ، كانت عقوبة في أول الإسلام ، حتى شرعت الحدود ، واستقرت الأحكام : ﴿ وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ أَلْفَلَحِشَّةً مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْرِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً

(١) أو بتعبير الشيخ الغزالي رحمه الله : (بين التقاليد الراكدة والوافدة) .

(٢) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢١٢٨) ، وأحمد (٧٠٨٣) ، وابن حبان في التاريخ (٧٤٦١) ، عن أبي هريرة .

مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿النساء: ١٥﴾ .

في بعض بلاد الخليج رفضوا أن يكون للمرأة حق التصويت في الانتخاب ، ناهيك بأن تُرشح نفسها في المجالس النيابية أو المجالس البلدية ! وهذا - والله - ليس من الإسلام في شيء ، إنها غلبة العصبية والتقاليد على التعاليم الإسلامية ، أما التعاليم الإسلامية فتُطلق المرأة لتعمل جنباً إلى جنب الرجل .

قالوا : المرأة نصف المجتمع . وهذا صحيح من الناحية العددية ، ولكن المرأة أكثر من النصف ؛ لأنها تُؤثّر في النصف الآخر ، تُؤثّر في زوجها إيجاباً أو سلباً ، وتُؤثّر في أبنائها إيجاباً أو سلباً . ولهذا لا يجوز أبداً أن نُعطّل هذه الرثة ، أو نهيض هذا الجناح من جناحي المجتمع ، بل يجب أن نعدّها إعداداً ليكون تأثيرها في الصف الآخر إيجابياً ونافعاً .

الإسلام مرجعيتنا في دور المرأة :

لا بدّ أن تسير المرأة مع الرجل جنباً إلى جنب ، ولكن بشرط أن تنضبط بأوامر الله ونواهيه .

نحن لا نرفض أبداً أن يكون للمرأة دورها في السياسة ، ودورها في التنمية ، بل هذا هو الذي يجب شرعاً ، ويجب ديناً ، ولكن لا بدّ لنا أن ننبّه هنا : أن يكون سير المرأة وحركتها في إطار (المرجعية الإسلامية الحاكمة) . نحن لسنا أمة متسيّبة ، نحن أمة لها شرع ، ولها دين ، ولها رسالة . فلا بدّ أن تكون حركة المرأة - كحركة الرجل - منضبطة بالمرجعية الإسلامية .

ليست مرجعيتنا : وثائق الأمم المتحدة ، التي تريد أن تفرضها علينا ، تريد أن تلغي جميع أشكال التمييز بين الرجل والمرأة ، حتى ما جاءت به القواعد الشرعية . وليست مرجعيتنا كذلك وثيقة الطفولة . هذه الوثائق لا تلزمنا بحذافيرها ، بل نحن نأخذ منها ما يتفق مع قواعد شرعنا ، ونرفض ما ينافي ذلك ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا ﴾ (الأحزاب: ٣٦) .

وينبغي أن تتنبه للأفكار المسمومة والمشبوهة التي تدخل في هذه الوثائق تحت عناوين مختلفة ، مثل الصحة الإنجابية ، والإجهاض المأمون ، وغيرها ، التي يريدون بها أن يحلوا ما حرم الله ، وأن يسقطوا ما فرض الله .

حركة المرأة ينبغي أن تنضبط في ظل المرجعية الإسلامية الحاكمة ، ومع الاحتفاظ بالهوية الإسلامية المُميّزة . نحن لنا هوية تُميّزنا عن غيرنا ، فلا بد أن نحفظ بهذه الهوية ، بقيمتها وأخلاقياتها وأحكامها وأدبياتها .

يجب أن تنضبط بأحكام الشريعة في كل سلوكياتنا ، وأن نطلق من أهدافها الواضحة . فلكل أمة أهدافها المنبثقة من رسالتها في الحياة ، ومن فلسفتها في الوجود . نحن لنا فلسفة غير فلسفة الغرب ، ولنا رسالة غير رسالة الغرب : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣) ، ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠) .

عودة المرأة إلى المرجعية الإسلامية :

في هذا الإطار الإسلامي ، وفي حدود هذه الضوابط ينبغي أن يكون سير المرأة ، ونهوض المرأة . والحمد لله قد نهضت المرأة المسلمة في كثير من البلاد ، وعادت إلى مرجعيتها الشرعية .

كان الحجاب في فترة من الفترات يُعتبر شاذاً . الآن اذهب إلى أي بلد عربي أو إسلامي ، تجد الحجاب ظاهرة منتشرة . لم يفرض أحد على هؤلاء الفتيات أن يعدن إلى الحجاب ، هي حركة نسائية ، طوعية ، اختيارية ، جاءت مع الصحوة الإسلامية .

ينبغي أن نحرص على هذا التميز ، وأن نحرص على ثمار هذه الصحوة ، حتى تكون حركة المرأة حركة مباركة مثمرة ، تُثمر الخير ولا تُثمر الشر ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثُ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ (الأعراف: ٥٨) .

اللهم هَيِّئْ لنا من أمرنا رشداً ، اللهم إنا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا ،
اللهم آمين . ادعوا الله تعالى يستجب لكم

الخطبة الثانية :

أما بعد ، فيا أيها الأخوة المسلمون :

ملحمة جنين :

لا زالت الانتفاضة المباركة ، ولا زالت المقاومة الفلسطينية الباسلة ، ولا زالت
البطولات الفارعة الرائعة تفرض نفسها علينا نحن العرب والمسلمين .

لا يجوز لنا بحال أن ننسى هذه الانتفاضة ، وننسى هذه المقاومة ، وننسى هذا
التاريخ البطولي الأسطوري ، الذي سجَّله إخواننا وأخواتنا في هذه الأيام ، وفي هذه
المدة خاصة ، منذ أكثر من ثمانية عشر شهراً وحتى اليوم ، منذ بدأت هذه
الانتفاضة المباركة ، المقدمة ، المعطاءة ، التي نسأل الله تبارك وتعالى أن يُثَبِّتَهَا
وَيُسَدِّدَهَا وينصرها على عدوِّها .

آخر هذه البطولات : بطولات (جنين) ، وشكر الله لأخينا الكاتب الإسلامي
الكبير (فهمي هويدي) ، الذي عنون لهذه القضية تحت عنوان : (ملحمة لا مأساة) .
وأوصانا وذكرنا : ألا يغلب جانب المأساة على جانب الملحمة .

هناك مأساة حدثت من غير شك : هذه الدماء التي سُفِّكت ، وهذه الأرواح التي
أُزهقت ، وهذه البيوت التي دُمِّرت . ما حَدَّثَ من مآسي لا يمكن أن ننساه ،
ولا يمكن أن ينساه التاريخ ، وهو الذي أرسلت الأمم المتحدة أخيراً من أجله لجنة
لتقصي الحقائق ، ولكن شارون وعصابته رفضوا استقبال هذه اللجنة .

لكن التاريخ سيسجِّل على هؤلاء الطغاة المستكبرين ما ارتكبوا من مجازر ، لن
ينساها التاريخ ، وإذا نسيها التاريخ فلن ينساها الله تبارك وتعالى ، الذي لا تخفى
عليه خافية ، ولا يغيب عنه سرٌّ ولا علانية ، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا
يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ (إبراهيم: ٤٢) ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾
(الشعراء: ٢٢٧) .

لا زالت هذه المأساة حاضرة عندنا ، ولكن المأساة لا يجوز أن تنسينا ملحمة البطولة الفذة لأبناء جنين ، وبنات جنين ، وشعب جنين كله ، ودور المرأة فيها مثل دور الرجل . إذا كنا تحدثنا عن المرأة في الخطبة الأولى ، فلا يجوز أن نغفل دور المرأة في هذه القضية .

رأينا الأمهات اللاتي يُحرّضن أولادهنَّ على الذهاب إلى المعركة ، مثل : أم نضال ، واللاتي يستقبلن أولادهن الشهداء بالزغاريد ، والفتيات اللاتي قدَّمن أرواحهنَّ رخيصة في سبيل الله : وفاء إدريس ، وآيات الأخرس ، وعندليب طقطاقة ، وغيرهنَّ من هؤلاء البطلات . هؤلاء يُثبتن أنَّ المرأة قادرةٌ على أن يكون لها دورٌ في الحياة مع الرجل ، هذا أمر نذكره بكلِّ فخر واعتزاز .

الشدوذ عن الجماعة :

ولكن ممَّا يدمي القلب ، ومما يدمع العين ، أن نرى من بين أبناء جلدتنا ، ومَن يتكلمون بألسنتنا ، مَن يحاول أن يشرُد عن القطيع ، ويخرج عن الصفِّ ، ويشدُّ عن الجماعة ، ويقول كلاماً مرفوضاً بكلِّ منطق : مرفوضاً باسم الدين ، ومرفوضاً باسم الخلق ، ومرفوضاً باسم العرف ، ومرفوضاً باسم الوطنية ، ولا يُقبل بحال من الأحوال .

وجدنا مَن يرفض الخطَّ العام للأمة ، ويُغرِّد خارج السَّرب ، ويمشي وحده ، والنبي ﷺ يقول : «عليكم بالجماعة ، فإنَّ الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد»^(١) ، «إنَّ الله لا يجمع أمَّتي - أو قال : أمة محمد ﷺ - على ضلالة ، ويدُ الله مع الجماعة ، ومَن شدَّ شدَّ إلى النار»^(٢) .

هناك مَن ينكر على الأمة كراهية أمريكا ، ويقول : إنَّ هذه الكراهية كراهية عمياء! هل مَن يكره أمريكا في هذا الوقت تكون كراهيته عمياء!؟

(١) رواه أحمد (١١٤) ، وقال مخرجه : إسناده صحيح ، رجال ثقات رجال الشيخين ، والترمذي في الفتن (٢١٦٥) ، وقال : حسن صحيح غريب ، والنسائي في الكبرى كتاب عشرة النساء (٩١٨٠) ، والحاكم في العلم (١١٤/١) ، وصححه على شرطهما ، ووافقه الذهبي ، عن عمر بن الخطاب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤٦) .

(٢) سبق تخريجه ص ٢٧ .

أولاً: لسنا وحدنا الذين نكره أمريكا ، معظم العالم يكره أمريكا ، وقد تبين ذلك في مؤتمر (دربان) بجنوب أفريقيا^(١). ونحن لا نكره أمريكا من فراغ ، إنما نكره أمريكا لأعمالها .

أمريكا التي تقول عن (شارون) : إنه رجل سلام! وتقول عن (عرفات) : إنه رجل إرهاب .

أمريكا التي تدين حركات المقاومة في فلسطين : حماس ، والجهاد ، وكتائب الأقصى ، وتعتبر ذلك إرهاباً ، ولا تعتبر أعمال إسرائيل إرهاباً ولا عنفاً ، بل هي من الدفاع عن النفس! وتقول : إنها تتفهم حاجة إسرائيل إلى الدفاع عن نفسها! أليس من حقنا أن نكره أمريكا ، وقد وقفت هذا الموقف المتحيز الظالم؟! عجباً لمن يقول : إننا نكره أمريكا كراهية عمياء .

أحبّ أمريكا ما شئتَ ، ولتُحشر معهم . أتقبل أن تُحشر مع (بوش) ، ونائبه (ديك تشيني) ، ووزير دفاعه (رامسفيلد)؟ فقد جاء في الحديث : « المرء مع مَنْ أحبَّ »^(٢).

أحبّ هؤلاء ، فنحن نتقرب إلى الله بكراهيتهم ما داموا على هذا الموقف .

حرق علمي إسرائيل وأمريكا :

ويقول هؤلاء : إننا لا نتصرف تصرفاً حكيماً حينما نحرق علم إسرائيل . ويغار كلّ الغيرة على علم إسرائيل ، وعلى علم أمريكا . ويقول فيما قال : لا يجوز بأيّ حال حرق علم أيّ دولة ، وبأيّ سبب كان!

يا لله ، العالم كله من مشرقه إلى مغربه ، ومن شماله إلى جنوبه ، ومن عربيه إلى عجمه ، ومن مسلميه إلى مسيحييه إلى وثنييه ، كلُّ هذا العالم يحرق أعلام الدول التي يختلف معها ويعاديها وتعاديه . فلماذا تستكثر علينا أن نحرق علم إسرائيل ، أو علم أمريكا؟ هذا تعبير عن الغضب على هؤلاء .

(١) في المؤتمر الثالث للأمم المتحدة المناهضة للعنصرية بمدينة دربان بجنوب أفريقيا في الفترة من ٣١ مارس - ٨ سبتمبر ٢٠٠١ م .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في الأدب (٦١٦٨) ، ومسلم في البر والصلة (٢٦٤٠) ، عن ابن مسعود .

العالم أقرَّ هذا كله ، ولكن هؤلاء الذين يشذُّون عن الجماعة « ومن شدَّ شدَّ إلى النار »^(١) ، يريدون أن يتَّخذوا لهم طريقاً وحدهم .

تحريم شراء البضائع اليهودية والأمريكية :

يعيبون علينا أننا نفتي بتحريم شراء البضائع الصهيونية والأمريكية! ولستُ وحدي الذي أفتيتُ بهذا ، أفتى بهذا علماء كثيرون منهم : مفتي مصر السابق ، ومنهم عدد من العلماء في المجامع الفقهية ، حوالي ثلاثمائة عالم ، قالوا بتحريم شراء البضائع من الأعداء ، لأن هذا من التعاون على الإثم والعدوان . وقلتُ في فتواي : إن هذا أمر يحتاج إلى إنشاء لجان شعبية تنظِّم هذه المقاطعة ، وتُرتَّب الأولويات : البضائع الأمريكية الخالصة أولاً ، فإذا انتهينا منها نتقل إلى البضائع الأمريكية المصنوعة في بلادنا .

ما حاجتنا إلى أن نشترى السجائر الأمريكية بالمليارات؟ ما حاجتي أنا كمسلم إلى أن أشتري سيارة أمريكية وأنا أستطيع أن أشتري سيارة يابانية؟ لماذا يحامي هؤلاء عن المصالح الأمريكية؟

أعجب من هؤلاء الذين اشترتهم أمريكا ، الذين باعوا أنفسهم للشيطان ، يحامون عن هذه البلاد التي تريد أن تقتلعنا من جذورنا؟ فهم أمريكيون أكثر من الأمريكان ، يُسبِّحون بحمد أمريكا ويقدِّسون لها .

أليس من حقنا على الأقل - إذا لم نستطع أن نحارب - أن نقاطع؟ المقاطعة هي الشيء الذي في أيدينا ، هل هذا يحتاج إلى قرار من ولي الأمر؟ هل تريد من ولي الأمر أن يقول لك : لا تشتري بضاعة أمريكية ، لا تركب سيارة أمريكية! ما دخل ولي الأمر في هذا؟! هذا من حقك ، هذا أمر ينظِّمه الناس في كلِّ العالم بين بعضهم وبعض .

أعجب لهذا المنطق الأعوج ، الأعرج ، الذي يدافع عن بضائع إسرائيل ، وبضائع أمريكا . ولكن الإنسان إذا انحرف عن الطريق المستقيم ولم تعد رؤيته مقيّدة بمنهج الله ، ومشى في ركاب الآخرين أصابه الهوس ، وأحاط به الخطل والزلل :

(١) سبق تخريجه ص ٢٧ .

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمِهِ وَحَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ
عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾ (الجن: ٢٣).

الدعاة إلى التطبيع مع إسرائيل :

رأينا أناساً في بعض البلاد ينادون بالتطبيع مع إسرائيل! كيف نُطَبِّعُ مع إسرائيل وهي تحتلُّ الأرض ، وتهتك العرض ، وتسفك الدم ، وتُشردُّ الأهل ، وتفعل ما تفعل؟ ويقولون : ليس لنا إلا أن نضع أيدينا في يد أمريكا! نضع أيدينا في يد أمريكا إذا كانت مع العدل ، إذا وقفت مع الحق ، إذا تركت هذا الانحياز الأعمى . هؤلاء هم الذين يُحِبُّون أمريكا حباً أعمى ، أما نحن فنكرها كراهيةً مُبصرة ، لأنها مبنية على أسس ، وعلى أصول .

خيبة الله على هؤلاء الذين يريدون أن نبيع أوطاننا ، ونبيع ديننا ، ونبيع قِيَمنا ، بثمن بخس ، أو (مجاناً) بغير ثمن قط .

لا والله ، نحن قد بعنا أنفسنا لله وحده ، رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً . نُسالم مَنْ سَالَمْنَا ، ونُحارب مَنْ حَارَبْنَا ، نوالي مَنْ والانا ، ونُعادي مَنْ عادانا ، وعادى الله ورسوله والأمة الإسلامية ، والله تعالى يقول : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ (المجادلة: ٢٢) .

من روائع المواقف الإيمانية :

أذكر لكم - أيها الإخوة - موقفاً من أروع المواقف شهدته بالأمس : جاءت البضائع الأمريكية - من المأكولات والمشروبات وألعاب الأطفال - إلى مخيم جنين ، الذي لا يجد أهله القوت ، فرفضها أهل المخيم ، وقالوا : نموت جوعاً ولا نقبل أغذية جاءت من بلاد قُتِلنا بأسلحتها ، وأيدوا عدوَّنا في قتلنا .

ولا نملك إلا أن نقول : حيَّ الله أبناء جنين ، حيَّ الله بنات جنين ، حيَّ الله رجال جنين ، حيَّ الله نساء جنين ، وأبعد الله أولئك الذين لا يفقهون ، ولا يعلمون .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يُنير بصائرنا ، وأن يُسدّد خطانا ، وأن يُثبّت على الحقّ أقدامنا ، وأن يُهيئ لنا من أمرنا رشداً ، وأن ينصر إخواننا في فلسطين .

اللهم انصر إخواننا في فلسطين ، اللهم سدّد رميتهم ، وقوّ شوكتهم ، واجمع على الحقّ كلمتهم .

اللهم عليك باليهود المعتدين الغادرين ، اللهمّ عليك بشارون وعصابة شارون ومن ناصر شارون .

اللهم خذهم أخذ عزيز مقتدر ، اللهم اسلب عنهم حِلْمك وإمهالك ، اللهم أنزل عليهم بأسك الذي لا يردُّ عن القوم المجرمين ، اللهم أدِلْ دَوْلَتهم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلاً على أحدٍ من عبادك المؤمنين .

اللهم هيئ لإخواننا المجاهدين في فلسطين نصراً عزيزاً ، اللهم افتح لهم فتحاً مبيناً ، اللهم اهدهم صراطاً مستقيماً ، اللهم اجعل يومهم خيراً من أمسهم ، واجعل غدهم خيراً من يومهم ، وأحسن عاقبتهم في الأمور كلّها ، وأجرنا معهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

اللهم اجعل هذا البلد آمناً مطمئناً ، سخاءً رخاءً ، وسائر بلاد المسلمين .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٧) .

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٥) .

* * *

(٨)

يوم المرأة العالمي^(١)

الخطبة الأولى :

أما بعد ، فيا أيها الإخوة المسلمون :

أتحدّث إليكم عن موضوع المرأة ، بمناسبة يوم المرأة العالمي ، وبمناسبة ما يدور من حديث وحوار وجدال في عدد من بلدان العروبة والإسلام حول قضايا المرأة ، ما بين مؤيّد ومعارض ، وما بين معتدل ومتطرف .

الإسلام حرّر المرأة :

وأحبُّ أن أقول لهؤلاء جميعاً : إنَّ الإسلام قد حرّر المرأة ، وإنَّ محمداً ﷺ هو أوّل من حرّر المرأة ، لا قاسم أمين ولا غيره من دُعاة تحرير المرأة ، فهؤلاء أرادوا أن يُحلّلوا المرأة لا أن يُحرّروها .

أما محمد ﷺ فهو الذي حرّر المرأة حقيقةً من ظلم الجاهلية وظلامها ، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه كلمة ينبغي أن نعيها ونستذكرها ، قال : إنما يُنقص الإسلام عُروة عُروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية^(٢) .

وضع المرأة في الجاهلية :

كثيرٌ من الناس لا يعرف ماذا كانت عليه الجاهلية؟ وماذا صنع الإسلام؟ وخصوصاً في شأن المرأة والأسرة .

كانت المرأة في الجاهلية شيئاً من الأشياء ، متاعاً من الأمتعة ، ما كان لها قيمة ، بل كانت تُعتبر ولادتها كارثةً على أبيها وعلى أهلها ، وقد عرفنا بذلك القرآن

(١) ألقيت في جامع عمر بن الخطاب بالدوحة في ١٠ مارس ٢٠٠٠ م .

(٢) مدارج السالكين (١/٣٤٣) .

الكريم حينما قال : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾
يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِمْ أَيُّسِكُّهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ
أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (النحل: ٥٨، ٥٩)، كان الرجل إذا قيل له : إن امرأتك ولدت .
يسأل : وما ولدت ؟ قالوا له : أنثى . قال : ما هي ينعم الولد ، نصرها بكاء ، وبرها
سرقة !

هكذا قال الرجل الجاهلي حينما قيل له : إن امرأتك وضعت أنثى .
نصرها بكاء : إذا أرادت أن تنصرتي تصرخ وتبكي وتوكلول ، ولا تستطيع أن
تحمل السلاح وتركب الجواد وتدافع .
وبرها سرقة : إذا أرادت أن تبرأ أباه وأهلها سرقت من زوجها .
هكذا يتصور هذا الرجل الجاهلي .

ولذلك ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (النحل: ٥٨)،
يمشي في الأزقة والأماكن البعيدة عن لقاء الناس ، كأنما ارتكب جريمة ، أو عمل
عملة فيها فضيحة ، ﴿ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِمْ ﴾ ، ويظل مفكراً ومتردداً ، هل يرضى
بالواقع ويمسكه على هوان ومذلة ؟ ﴿ أَيُّسِكُّهُ عَلَىٰ هُونٍ ﴾ ؟ أم يتخلص منه
و ﴿ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ ؟

وَأد البنات في الجاهلية :

وكثيراً ما كان يترجح الاحتمال الثاني ، التخلص من المولود بالدس في التراب ،
بالوأة . وهذه جريمة من أشنع جرائم الجاهلية ، فقد الإنسان فيها إنسانيته وقتل
بغير حق .

القتل جريمة شنيعة في ذاتها ، فكيف إذا كان قتل نفس زكية ، طفل بريء ؟
وكيف إذا كان القاتل هو الأب الذي يفترض فيه أن يحمي طفله ؟ وكيف إذا كان
يقتله مخافة أن يطعم معه ، خشية أن يزاحمه في رزقه ؟ وكيف إذا كان هذا القتل
بهذه الطريقة البشعة ، أن يدسه في التراب ؟ يحفر له حفرة ويرميه فيها حياً وينتهي
منه ، ﴿ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُبِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ ؟! (التكوير: ٨-٩) . هذه من
شناعات الجاهلية .

فضل الإسلام على البنات :

لو لم يكن من فضل الإسلام إلا أنه أنهى هذه الجريمة الشنيعة ، ولم يعد هناك مَنْ يُفكّر في مثل هذا الأمر . بل غداً الناس يُحبُّون بناتهم ، ويتقربون إلى الله بتعليمهنّ وتأديبهنّ ورعايتهنّ ، لأنهنّ باب من أبواب الجنة ، وقال الشاعر :

لولا بنات كزُغِب القَطَا رُدُّدْنَ مَنْ بَعْضُ إِلَى بَعْضٍ
لكان لي مُضْطَرَبٌ واسعٌ في الأرض ذات الطول والعرض
وإنّما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض^(١)

هكذا قال الشاعر المسلم بعد أن علّمه الإسلام ، وهذبته الإسلام ، ورقق قلبه الإسلام ، فيرى أولاده - سواء كانوا بنين أم بنات - أكبادهم تمشي على الأرض .

هكذا علّم الإسلام الناس : أن يحترموا البنات ، ويعتبروها هبةً من الله ، كما قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَخْلُوقٌ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٥٠﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴿٥١﴾ (الشورى: ٤٩، ٥٠) ، فبدأ بالإناث : ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا ﴾ .

ذكر الإناث أولاً ، ولذلك شاع عند كثير من المسلمين هذه المقولة التي تقول : (خير النساء مَنْ بَكَرَتْ بِأُنثَى) ، كأنما اكتسبها من القرآن : ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا ﴾ . فما عاد الناس كما كانوا في الجاهلية يثدون البنات ، هذا من فضل الإسلام على المرأة : أنه حماها من جريمة الجاهلية ، جريمة الوأد .

تكريم الإسلام للمرأة ومظاهره :

الإسلام ارتفع بالمرأة ، ارتقى بمكانتها وقيمتها ، كرّمها وأنصفها في كلّ مجال ، كرّمها باعتبارها إنساناً ، وكرّمها باعتبارها أنثى ، وكرّمها باعتبارها بنتاً ، وكرّمها باعتبارها زوجة ، وكرّمها باعتبارها أمّاً ، وكرّمها باعتبارها قريبة ، وكرّمها أختاً أو خالة أو عمّة ، وكرّمها باعتبارها عضواً في المجتمع^(٢) .

(١) من شعر حطان بن المعلى .

(٢) انظر ما كتبه الشيخ القرظاوي عن المرأة في المجتمع المسلم في الفصل الحادي عشر من كتابه : (ملاحم المجتمع المسلم الذي نشده) . وقد أفرد هذا الفصل بالنشر في رسالة بعنوان : (مركز المرأة في الحياة الإسلامية) ، وطبعتهما مكتبة وهبة بالقاهرة .

هكذا كرم الإسلام المرأة وارتقى بمنزلتها ، حتى إن القرآن قصَّ علينا عدداً من القصص رفع فيها منزلة المرأة ، وحكى لنا من الحكَم والأقوال عن بعض النساء أصبح لها قيمتها في حياتنا الإسلامية .

حكمة امرأة العزيز :

نقل القرآن عن امرأة العزيز بعد أن عرَفت خطأها في مُراوَدَة يوسف أنها قالت : ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِذْ أَلْفَسْتُ لِأَمْرَةٍ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجِمْتَنِي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (يوسف: ٥٣) . حتى إن بعض المفسرين نسبوا هذا القول إلى يوسف عليه السلام ، كأنما استكثروه على هذه المرأة . والواقع أن السياق كله يقول إن الكلام من كلام المرأة : ﴿ أَلَيْسَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالسوء وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴿ (يوسف: ٥١، ٥٢) ، كله كلام المرأة ، ومن تمة كلامها هذا الكلام : ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِذْ أَلْفَسْتُ لِأَمْرَةٍ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجِمْتَنِي ﴾ (يوسف: ٥٣) .

حكمة ابنة الشيخ الصالح في مدين :

ذكر لنا القرآن أيضاً من الكلمات الحكيمة على لسان ابنه ذلك الشيخ الكبير في (مدين) ، الذي زعم بعض المفسرين أنه (شعيب) عليه السلام ، وليس بشعيب ، شعيب كان قبل موسى ، ولكن لعلَّ اسمه شعيب ، فإنَّ قبيلة مدين مثل غيرهم يُسمون بأسماء أنبيائهم ، ولكن ليس هو شعيب النبي المرسل .

هذه الابنة قالت لأبيها : ﴿ يَتَأْتِي أَسْتَجِرُّهُ إِنِّي خَشِيتُ مِنَ اسْتَجْرَتِ الْقَوِيِّ الْأَمِينِ ﴾ (القصص: ٢٦) ، هذه الكلمة وضعت المواصفات الأساسية لاختيار الرجال للأعمال ، أصبحت هذه الكلمة أساساً في كتب السياسة الشرعية : مَنْ نختار ؟ وما هي الصفات التي يجب أن نختارها للرجال حينما نُولِّهم المسؤوليات ؟ خصوصاً المسؤوليات المهمة : القوة ، والأمانة . القوة على الشيء : أن يكون كفواً له ، قادراً عليه ، عالماً به . والأمانة : بحيث يكون إنساناً مؤتمناً على عمله ، يخشى الله فيه ، ويتقي الله في عمله .

هاتان الصفتان أساسيتان : صفة تتعلّق بالعقل ، وصفة تتعلّق بالضمير . لا بدّ من هاتين الصفتين : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَفْجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ ﴾ (القصص: ٢٦).

ولذلك كان الناس يشكون دائماً من ضعف الأمين وخيانة القوي ، كما كان سيدنا عمر يقول : اللهم إني أشكو إليك عجز الثقة وجلد الفاجر^(١) . الثقة هو الأمين ، والفاجر هو الخائن .

فالناس في حاجة إلى هاتين الصفتين : ﴿ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ ، هكذا قالت هذه الفتاة على البديهة هذا الكلام .

حكمة ملكة سبأ :

كذلك حكى لنا القرآن تلك الحكمة عن المرأة التي حكمت (سبأ) في اليمن والتي يُعرفها التاريخ باسم : (بلقيس) : ملكة سبأ ، التي قصّ القرآن علينا قصتها في سورة (النمل) ، وكيف حكمت قومها حكماً عادلاً ، وحكماً شورياً ، أو ما يسمونه الآن (ديمقراطياً) ، وحينما جاءها كتاب سليمان : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ قالوا نحن أولوا قوّة وأولوا بأسٍ شديدٍ والأمر إليك فأنظري ماذا تأمرين ﴿ (النمل: ٣٢، ٣٣) ، فوضوا إليها أن تتصرّف بحكمتها كما ترى ، ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَبةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (النمل: ٣٤). بهذه الكلمات حدّدت مهمّة الاستعمار ، لا تقصد أن الملوك إذا دخلوا بلادهم أفسدوها ، لا ، إذا دخلوا بلاد غيرهم فاتحين مستعمرين ، إذا دخلوها أفسدوا البلاد ، وأذلّوا العباد ، هذه مهمّة الاستعمار ، وكذلك يفعلون دائماً .

هذه حكمة من هذه المرأة المحنّكة السياسية الداهية : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَبةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (النمل: ٣٤) .

(١) مجموع الفتاوى (٦٨/٢٨) .

المرأة مكلفة مثل الرجل :

هذه حِكْمَ قصَّها علينا القرآن ، قالها بعض النساء . فليست المرأة - كما يظنُّ بعض الناس - مخلوقًا ناقصًا ، أو مخلوقًا مُشَوَّهًا ، أو مخلوقًا لا عقل له ، لا ، المرأة مُكَلَّفَةٌ مثل الرجل تمامًا . حينما يقول القرآن : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ﴾ (البقرة: ٢١) أو : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ، فهذا خطابٌ للذكور وللإناث جميعًا . وقد جاء في الحديث : أن أُمَّ سَلَمَةَ رضي الله عنها ، زوج الرسول ﷺ وأُمَّ المؤمنين قالت : كنتُ أسمعُ الناسَ يذكرُون الحوض ، ولم أسمع ذلك من رسول الله ﷺ ، فلما كان يومًا من ذلك والجارية تُمشطُني ، فسمعت رسول الله ﷺ يقول : « أيها الناس » . فقلت للجارية : استأخري عني . قالت : إنما دعا الرجال ولم يدعُ النساء . فقلت : إني من الناس ^(١) ، فذكرت الحديث .

المرأة مُكَلَّفَةٌ مثل الرجل ، والقرآن يقول : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ ﴾ (الأحزاب: ٣٥) ، إلى آخر هذه الأمور العشرة ، أشرك فيها الرجال مع النساء ، والله تعالى يقول : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ (آل عمران: ١٩٥) .

بعضكم من بعض :

انظروا إلى هذا التعبير القرآني المُوجَزُ المُعْجِزُ : ﴿ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ (آل عمران: ١٩٥) أي : الرجل من المرأة والمرأة من الرجل ، هو يكملها وهي تُكَمِّله ، ليس الرجل خصمًا للمرأة ولا المرأة عدوًّا للرجل ، وليس أحدهما نِدًّا للآخر يُحاول أن ينافسه ، لا ، هما متكاملان ، لا يستغني الرجل عن المرأة ولا تستغني المرأة عن الرجل ، ومنذ خلق الله آدم وأسكنه الجنة لم يدعه وحده ، بل خَلَقَ له من نفسه زوجًا ليسكن إليها ، وتسكن إليه أيضًا ، وقال له : ﴿ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ (البقرة: ٣٥ ، الأعراف: ١٩) ، إذ لا معنى للجنة إذا عاش الإنسان فيها وحده ، بما معنى جنة بغير أنيس ولا جليس ! ؟

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٢٩٥) ، وأحمد (٢٦٥٤٦) ، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١٣٩٦) .

الزوجية سنة كونية :

الإنسان بفطرته اجتماعي ، لا بد له من أنيس ، والله سبحانه وتعالى خلق الكون على سنة الأزواج ، الزوجية سنة سائدة في هذا الوجود ، ليس هناك واحد إلا (الله) تعالى ، وكل ما في هذا الكون أزواج : الليل والنهار ، والذكر والأنثى ، والموجب والسالب ، ولذلك يقول القرآن : ﴿ سُبْحٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنَ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يس:٣٦) ، ويقول عز وجل : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الذاريات:٤٩) ، من كل شي خلق الله زوجين متقابلين .

كان المفسرون قديماً يقولون : هذه كلية أغلبية . لا ، هي ليست كلية أغلبية ، هي كلية على ظاهرها ، كل شيء في الكون ، حتى الذرة - التي يتحدثون عنها اليوم ، ويعتبرونها قاعدة البناء الكوني - فيها موجب وسالب ، أو شحنة كهربائية موجبة وشحنة كهربائية سالبة ، إلكترون وبروتون كما يسمونهما .

هذا هو بناء الكون : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الذاريات:٤٩) ، ولذلك خلق الله الزوجين الذكر والأنثى : في الإنسان ، وفي الحيوان ، وفي النباتات ، عرف الناس قديماً ، ذلك في النخيل ، ثم عرفوا الآن حبوب التذكير وحبوب التأنيث في سائر النباتات .

الحضارة الحديثة تخالف هذه السنة الكونية :

الآن نرى الحضارة الحديثة تريد أن تخالف هذه القاعدة الكونية ، تريد أن تناقض سنة الزوجية ، ليكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء! تريد الأسرة الوحيدة الجنس ، أسرة من رجلين ، أو أسرة من امرأتين ، تريد الشذوذ الجنسي ، بل يسمونه الآن : (المثلية!) .

والشذوذ الجنسي أول من ابتكره أمة خسف الله بها الأرض وأزالها من الوجود ، وهي قوم لوط ، قال لهم نبيهم لوط : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (الشعراء:١٦٥،١٦٦) ،

أنتم قوم معتدون متجاوزون للحدود ، وصفهم هنا بالعدوان ، وفي مقام آخر : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (الأعراف: ٨١) ، وفي مقام ثالث : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُجَاهِلُونَ ﴾ (النمل: ٥٥) ، وفي مقام رابع : ﴿ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (العنكبوت: ٣٠) ، وفي مقام خامس : ﴿ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٤) ، فوصفهم بالإجرام ، وبالإفساد ، وبالإسراف ، وبالجهل ، وبالعدوان ، وبكل نقيصة ، لأنهم خالفوا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، يدعون ما خلق لهم ربهم من أزواجهم من نساء طبيبات طاهرات ، ويأتون الذكران من العالمين : ﴿ أُنْثِيَكُمْ لِنِاتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ۗ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُجَاهِلُونَ ﴾ (النمل: ٥٥) ، هذا هو انحطاط الجهل والجاهلية ، هذا الذي حدث .

وعاقب الله هذه الأمة بعقوبتين :

- ١- ﴿ جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا ﴾ (هود: ٨٢) ، قلب عاليها سافلها .
 - ٢- ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ (هود: ٨٢، ٨٣) ، كل حجر يذهب إلى صاحبه .
- ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (هود: ٨٣) .

إحياء الحضارة الغربية للشذوذ الجنسي والمباهاة له :

تأتي الحضارة المعاصرة بعد هذه القرون لتحيي عمل قوم لوط ، لتحيي هذه الجريمة وتبجح بها ، بل تزيد عليها : استغناء النساء بالنساء ! .

المصيبة في الحضارة الغربية أنها ترتكب الفضائح الأخلاقية وتباهي بها ، كان الناس قديماً يرتكبون هذه الفضائح في السرّ ، يتخفون ، لا يحبون أن يعرف هذا عنهم ، أما المصيبة في هذا العصر : أن يشيع هذا ويصبح أمراً ظاهراً عاماً ، وأن لا يستحيي الناس منه ولا يخجلوا ، وأن يقنن بقوانين أقرتها بعض الدول ، مثل بريطانيا ، ومجلس العموم البريطاني ، وأن يباركه القسس ورجال الدين ويعلنوا ذلك على الملأ ، في التلفازات ، القسيس الفلاني يعقد زواج الرجال بالرجال والنساء بالنساء ، وتليفونه كذا ، وعنوانه كذا ! !

هذه هي الحضارة المأساوية التي يعيشها الناس في عصرنا : أن يزوج الرجال بالرجال والنساء بالنساء ، خلافاً للفطرة .

الحياة تقوم على الازدواج :

الإسلام يقول : الحياة تقوم على الازدواج ، وأن الرجل من المرأة والمرأة من الرجل ، لا غنى لأحدهما عن الآخر ، ولا يمكن أن يستمر وجود النوع الإنساني إلا بهذا الزواج ، لأن زواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة لا يمكن أن يكون منه نسل ، فلو قبل عموم الناس ذلك لانتهد البشرية في جيل واحد .

سنة الله هو هذا الزواج ، والله تعالى يقول : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ (النحل: ٧٢) ، ذكرهم الله بنعمة الأولاد والأحفاد لتستمر الحياة ، ويستمر النوع . هؤلاء يصادون قوانين الله في شرعه ، وسنن الله في خلقه ، يصادون هذا كله . أي حضارة هذه الحضارة؟!

الإسلام يرفع قيمة المرأة :

الإسلام جاء وارتفع بقيمة المرأة ، وقال القرآن : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِمَّنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١٩٥) . أي : من الجنسين ، من الذكور والإناث ، فأشار القرآن إلى أن المرأة يمكن أن تهاجر في سبيل الله ، وأن تقاتل وتُقتل وتُؤذى ، وهذا ما حدث .

أول شهيد في الإسلام امرأة :

أول شهيد في الإسلام لم يكن رجلاً ، وإنما كان امرأة قتلت بيد عِلجٍ مشرك جاهلي قاس : أبو جهل لعنه الله ، قتل هذه المرأة المؤمنة المُعذبة الصابرة في سبيل الله : سُمَيَّة (أم عمار بن ياسر) . ماتت سُمَيَّة وزوجها ياسر تحت العذاب ، ومراً عليهم النبي عليه الصلاة والسلام وهم يُعذَّبون فقال : « صبراً يا آل ياسر ، فإنَّ

موعدكم الجنة»^(١). وكان أول من قُتل سُمِّيَّة ، طعنها أبو جهل في موضع عَفَّتْها ، فَخَرَّتْ شهيدة في سبيل الله^(٢).

فأول من قَدَّم دمه في سبيل الإسلام كان امرأة .

أول مؤمن برسالة محمد ﷺ امرأة :

وأول صوت ارتفع بتأييد دعوة محمد ﷺ لم يكن صوت رجل ، إنما كان صوت امرأة ، صوت خديجة ، هي التي قالت للنبي ، وقد رجع من لقاء جبريل يرجف فؤاده ، ويرتعش جسمه ، ويقول : « زَمَلُونِي زَمَلُونِي » . لا يدري ما هذا الشيء الذي جاءه ، ما كان يرجو نبوة ، وما كان يرجو أن يلقي إليه شيء من الله ، فكان يخاف من هذا الشيء ، قالت له : كلا والله ، ما يُخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق^(٣) . أدركت بفطرتها السليمة أن من كان هذا شأنه لا يمكن أن يُخزيه الله ، لا يمكن أن يُسلط عليه شيطاناً ، سنن الله تأبى ذلك . كذا قالت خديجة رضي الله عنها المؤمنة الأولى في الإسلام .

فللمرأة في الإسلام شأنٌ عظيم .

الرسالة المحمدية رسالة الرجل والمرأة :

هذه الآية : ﴿ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ (آل عمران: ١٩٥) ، والآية الأخرى في سورة التوبة : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ (التوبة: ٧١) ، جاءت هذه الآية في مقابل آية أخرى تتحدث عن المنافقين والمنافقات : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ

(١) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٣/٣٨٨) ، وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٦٠٥٨) ، وقال الألباني في تخريج فقه السيرة : حسن صحيح ص ١٠٣ .

(٢) رواه ابن عبد البر في الاستيعاب (١/٦٠٢) .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في بدء الوحي (٣) ، ومسلم في الإيمان (١٦٠) ، كما رواه أحمد (٢٥٨٦٥) ، وابن حبان في الوحي (٣٣) ، عن عائشة .

يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ^٦ ذُكِرُوا بِاللَّهِ فَتَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿التوبة: ٦٧﴾ ، ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴿العصا من العُصْبَةِ ، والحَيَّة لا تلد إلا حَيَّةً ! ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴿ ، إذا كان النساء اللادينيات والعلمانيات والمشركات والكافرات يأمرن بالمنكر وينهين عن المعروف مع أمثالهن من المنافقين ، فعلى المؤمنين والمؤمنات أن يَحْطُطْنَ خطأ آخر ، وينهجن نهجاً آخر ، هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهذه هي خصيصة هذه الأمة : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿ (آل عمران: ١١٠) .

لم يجعل الله هذه الرسالة رسالةً رجاليةً أو ذكوريةً ، هي رسالة للرجال وللنساء جميعاً : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿ (التوبة: ٧١) ، هذه الوظيفة الاجتماعية المهمة منوطة بأعناق الرجال والنساء جميعاً ، ولا ينبغي للمرأة أن تقول : أنا مالي؟ أنا مهمتي أن أطبخ وأكس . ولا ينبغي للرجل أن يقول لها : وأنت مالك؟ أنت تفرغي للعيال ، والمنزل . لا ، هي مسؤولة مثلك تماماً .

المرأة والرجل كلاهما مسؤول عن هذا الدين ، عن نصرته الإسلام ، عن الدعوة إلى الله ، عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

إذا كانت المرأة المسيحية تذهب في أنحاء العالم لتنشر المسيحية وتدعو إليها ، لماذا المرأة المسلمة تحرم من هذا الحق؟ هذا هو الواجب على المرأة وعلى الرجل جميعاً : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿ (فصلت: ٣٣) .

هناك جيوش من المبشّرات (المنصّرات) ينتشرن في أنحاء العالم ، فلماذا نحبس المرأة المسلمة وحدها في البيت ، ونقول لها : مهمتك البيت؟ هذا خلاف ما جاء في القرآن ، وخلاف ما جاء عن النبي ﷺ في قوله : «إنما هن شقائق الرجال»^(١) ، المرأة شقيقة الرجل ، يمكن للمرأة أن تذهب مع زوجها أو شقيقها لتدعو إلى الله .

(١) سبق تخريجه ص ١٠٤ .

فينبغي أن نعرف بقدر المرأة .

خطر الجور على المرأة باسم التدين :

إن الذين يجورون على المرأة باسم التدين ، وباسم الإسلام ، فتحوا الباب واسعاً للذين يريدون أن يُخرجوا المرأة عن فطرتها ، وعن طبيعتها ، ويريدونها أن تكون مثل الرجل في كل شيء . هذا ما يدعو إليه المتغربون من أبناء المسلمين والعروبة ، الذين يريدون للمرأة المسلمة أن تسير وراء المرأة الغربية شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، ونحن لسنا عبيداً إلا لله ، لسنا عبيداً للغرب ولا للشرق .

ينبغي أن تكون المسلمة معتزةً بدينها ، لا بشيء آخر .

خطة تغريب المرأة المسلمة :

لا يجوز لنا أن نحول طبيعة المسلمة ونغربها في فكرها ، وفي خلقها ، وفي سلوكها ، كما يدعو بعض الناس اليوم . هؤلاء الناس اعتمدوا على التحجير والتضييق والكبت الذي تعانيه بعض النساء في بعض المجتمعات ؛ ليخرجوا المرأة عن الإسلام نهائياً ، ويسيروا وراء وثائق الأمم المتحدة ، التي تريد للشعوب أن تترك خصوصياتها الدينية والقومية والثقافية ، كما حاولوا في مؤتمر السكان في القاهرة سنة (١٩٩٤م) ، ومؤتمر المرأة في بكين سنة (١٩٩٥م) ، وكانت وثيقة الأمم المتحدة تُريد أن تلغي كل أشكال التمييز - كما يسمونها - بين الرجل والمرأة ، تريد أن تُسوي المرأة بالرجل والرجل بالمرأة . والفطرة لم تُسوَّ بينهما ، فطرة الله خالفت بين الرجل والمرأة ، الرجل لا يحمل ولا يلد ولا يرضع ، تكوين الرجل غير تكوين المرأة : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى ﴾ (آل عمران: ٣٦) ، فكيف تُسوي بينهما؟ التسوية بين المختلفين ظلم ، كما أن التفرقة بين المتساوين ظلم . فلا يجوز أن نقبل هذا .

للأسف في بعض البلاد - مثل ما يجري في بلاد المغرب اليوم - يريدون إدخال المرأة في التنمية ، ووضعوا لذلك خطة يريدون بها تغريب المسلمة ، يريدون بها

أن تساوي المرأة الرجل في الميراث ، ويريدون بها إذا طلق الرجل امرأته أن تأخذ نصف ما يملك ، على ما يفعل الغربيون والأوروبيون والأمريكان وغيرهم ! وهذا ما جعل الكثير منهم يحجم عن الزواج . عندما كنتُ أعالجُ في أوربا سألتُ الممرضات اللاتي يُمرّضنني ، فوجدتُ جميعهنَّ أنسات! هنَّ أنسات بالاسم ، ولكنهنَّ معاشرات لأخذن لهنَّ . لماذا؟ لأنَّ الرجل إذا تزوجَ ، ثم أراد أن يُطلق تأخذ المرأة نصف أملاكه ، وهذا ظلم . ماذا يأخذ أولاده؟ وماذا يأخذ أبوه وأمه؟ وماذا يأخذ أقاربه؟

هؤلاء يريدون أيضاً أن يُطوروا الأحوال الشخصية وقوانين الأسرة ، لتصبح كما في الغرب سواءً بسواء ، ونحن لنا قوانيننا ، ولنا أنظمتنا ، ولنا شريعتنا ، وأحكام قرآنا وستنتنا .

تطوير قوانين الأسرة يكون وفق اجتهاد شرعي سليم :

كلُّ ما علينا : أن نُطورَ هذه القوانين في ضوء اجتهاد شرعيٍّ سليم ، يأخذ بأفضل ما في فقهننا الإسلاميِّ الرَّحْب .

بعض الناس في بعض المحاكم - وفي بعض الإمارات بجوارنا - لا يزالون إلى اليوم إذا جاء رجل تشاجر مع إنسان في عرض الطريق ، وحلف بالطلاق (بالثلاث) أن يفعل كذا ولم يفعل ، يقول له : امرأتك طُلقتِ بالثلاث! وامرأته ليست بينه وبينها أية مشكلة ، بل هما غاية في الانسجام وغاية في السعادة ، ولكنه تشاجر مع شخص آخر فندت منه هذه الكلمة .

هذا الحكم لا يمكن أن يُقبل في عصرنا ، لا بدَّ أن نأخذ بما قاله بعض السلف ، ورجَّحه شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ومدرستهما ، وأفتت به لجان الفتوى ، وظهر في قوانين الأحوال الشخصية في عددٍ من البلدان: أنَّ مثل هذا الطلاق لا يقع ، إنما فيه كفارة يمين .

لا بدَّ من إصلاح القوانين التي عندنا .

العمل بقانون الخلع الجديد :

أنكر الكثيرون الأخذ بالخلع في القانون المصري الجديد ، وأنا لم أر به بأساً إذا حسنَ تطبيقه ، وحسنُ التطبيق أن لا يسارع القاضي كلما طلبت المرأة الخلع ، يجيئها إلى ذلك . لا ، لا بد أن يُحاول الإصلاح ، ويُحاول التقريب ؛ لأنَّ المرأة في ساعة الغضب تقول لزوجها : طلقني . فلا ينبغي أن يسارع القاضي إلى تطبيقها من زوجها .

الله سبحانه وتعالى قال للرجال : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ١٩) ، وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يفرُّك مؤمنٌ مؤمنةٌ - يعني لا يبغض ولا يكره مؤمنٌ مؤمنةٌ - إن كره منها خلقاً رضي منها آخر »^(١) . وكذلك المرأة ينبغي أن لا تنشد في زوجها الكمال ، كلُّ إنسان فيه مزايا وعيوب ، فلتجمع بعضها على بعض ، ولترضَ بمن كانت مزاياه أكثر من عيوبه ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول : « أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً في غير ما بأس ، فحرام عليها رائحة الجنة »^(٢) .

ولكن إذا كان هناك بأسٌ ، وكان هناك ضرورة ، وكانت المرأة لا تطيق زوجها بغضاً ، كما قالت امرأة ثابت بن قيس : يا رسول الله ، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين ، ولكنِّي أكره الكفر في الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « أتردِّين عليه حديثه ؟ » . قالت : نعم . قال رسول الله ﷺ : « اقبل الحديقة وطلقها تطليقة »^(٣) . فأخذ منها الحديقة ، وأعطاه الرجل ، وأمره بفراقها .

(١) رواه مسلم في الرضاع (١٤٦٩) ، وأحمد (٨٣٦٣) ، وأبو يعلى في مسنده (٦٤١٨) ، عن أبي هريرة .

(٢) رواه أحمد (٢٢٣٧٩) ، وقال مخرجه : حديث صحيح ، وأبو داود (٢٢٢٦) ، والترمذي (١١٨٧) ، وحسنه ، وابن ماجه (٢٠٥٥) ، ثلاثهم في الطلاق ، والبيهقي في الخلع والطلاق (٣١٦/٧) ، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (١٩٢٨) .

(٣) رواه البخاري (٥٢٧٣) ، والنسائي (٣٤٦٣) ، وابن ماجه (٢٠٥٦) ، ثلاثهم في الطلاق ، عن ابن عباس .

هذا الظاهر أنه قضاءً من رسول الله ﷺ ، فقد كان هو قاضي الأمة ، فإذا
قضى في مثل هذه الحالة ، فلا مانع أن نأخذ - بل يجب أن نأخذ - بما قضى به
رسول الله ﷺ ، إذا تبين لنا أن المرأة لا تطيق الرجل بغضاً ولا تستطيع المعاشة
معه .

لا يمكن أن يفرض الإسلام معاشرة على اثنين رغم أنفسهما ، أو رغم أنف
أحدهما .

الرجل يملك الطلاق ، فماذا تملك المرأة ؟

سبيل المرأة للتخلص من ظلم الزوج :

هكذا سألتني بعضهم : إذا كان الإسلام أعطى الرجل الطلاق ، فماذا أعطى
للمرأة؟

قلت : أعطى للمرأة ثلاثة أشياء ، أو ثلاثة مخارج :

١- المخرج الأول : الخلع :

الإسلام أعطى لها الخلع في حالة الكراهية ، إذا كانت الكراهية منها ، وإنما لو
كان هو الكاره ، ويريد أن يتزوج أخرى ، فلا يحلُّ له أن يأخذ منها فلساً ، كما
قال عز وجل : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَتَزَوَّجُوا مِنْ بَنَاتِكُمْ مِنْكُمْ فَمَا لَكُمْ إِذَا كَانَ لِلرِّجَالِ مَا يَكُونُ لِلنِّسَاءِ مِنْهُ فَمَا لَكُمْ إِذَا كَانَ لِلرِّجَالِ مَا يَكُونُ لِلنِّسَاءِ مِنْهُ فَمَا لَكُمْ إِذَا كَانَ لِلرِّجَالِ مَا يَكُونُ لِلنِّسَاءِ مِنْهُ فَمَا لَكُمْ ﴾ (النساء: ٢٠) . إنما لو
كانت هي الكارهة ، وهو الراغب فيها ، فيجب أن تردَّ إليه ما دفع ، لأنه في حاجة
إلى أن يؤسس أسرة أخرى وينفق عليها ، فما ذنبه؟

٢- المخرج الثاني : التحكيم :

خصوصاً إذا كان الشقاق من الطرفين ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ
بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِمْ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ٣٥) .

٣- المخرج الثالث : طلاق القاضي للضرر :

أن ترفع أمرها إلى المحكمة ، وتنظر في شكواها ، فإن كان الرجل يضارها
ويؤذيها ، بالضرب أو السبِّ أو بعدم النفقة أو بالغياب الطويل دون إذنها ، أو بغير
ذلك ، فمن حقِّ القاضي - بل من واجبه - أن يجبر الرجل على الطلاق ، بل أن
يطلق عليه هو جبراً .

وبذلك يكون الإسلام قد أنصف المرأة ، وأعطاهما في مقابل الطلاق ثلاثة أشياء وليس شيئاً واحداً^(١).

الإسلام ليس شريعة من وضع الرجال ، لم تضع الشريعة الإسلامية لجنة من الرجال حتى يتحيزوا ضدَّ النساء . إنما الذي وضع هذه الشريعة ربُّ الرجال والنساء الذي ﴿ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ (النجم: ٤٥) ، ولا يتصور منه أن يحييف على بعض خلقه لحساب البعض الآخر ، فهو عدلٌ ، وهو الحكمُ العدلُ ، وهو الذي ﴿ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (يونس: ٤٤) .

أسأل الله تبارك وتعالى أن يفقهنا في ديننا ، وأن يرُدنا إليه رداً جميلاً ، وأن يُحسن خاتمتنا ، إنه سميعٌ قريبٌ .

أقول قولِي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم ، فاستغفروه إنَّه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

الخطبة الثانية :

أما بعد ، فيا أيها الإخوة المسلمون :

نحن في هذه الأيام في عشر ذي الحجة ، وهي من أفضل الأيام عند الله ، كما جاء عن ابن عباس : « ما من أيام أعظم عند الله ، ولا أحبُّ إلى الله العمل فيهنَّ من

(١) ومنها : اشتراط المرأة في العقد أن يكون الطلاق بيدها ، فهذا جائز عند الحنفية وأحمد . وفي الصحيحين : « أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج » .

ومنها : التفريق للعيوب الجنسية . فإذا كان في الرجل عيب يعجزه عن الاتصال الجنسي ، فللمرأة أن ترفع أمرها إلى القضاء فيحكم بالتفريق بينهما ، دفعاً للضرر عنها ، إذ لا ضرر ولا ضرار في الإسلام .

بل ذهب بعض الأئمة إلى جواز التفريق بين المرأة وزوجها المعسر ، إذا عجز عن النفقة ، وطلبت هي ذلك ، لأن الشرع لم يكلفها الصبر على الجوع مع زوج فقير ، ما لم تقبل هي ذلك من باب الوفاء ومكارم الأخلاق . انظر : كتاب ملامح المجتمع المسلم الذي نشده (٣٤٨ - ٣٥٠) ، للشيخ القرضاوي ، نشر مكتبة وهبه .

وانظر كذلك : حق الزوجة الكارهة من كتاب الشيخ (فتاوى معاصرة) الجزء الثاني .

أيام العشر ، فأكثروا فيهنَّ من التَّسْبِيح ، والتَّحْمِيد ، والتَّهْلِيل ، والتَّكْبِير ^(١) . وتلاوة القرآن ، والصيام ، وخصوصاً صيام يوم التاسع : يوم عرفة ، فهو أفضل أيام العام ، وصيامه يُكفِّر ذنوب سنتين ، كما جاء عن النبي ﷺ : « صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفِّر السنة التي قبله والسنة التي بعده » ^(٢) .

مآسي موزمبيق :

وأحبُّ أن أتحدَّث عن شيء ، جاعني في مكتبي أحد الشباب الأفارقة الذين يدرسون في جامعة قطر ، وقال لي : نراك تتحدَّث عن القضايا العربيَّة والمآسي العربيَّة ولا تتحدَّث عن مآسي أفريقيا ، مثل ما يحدث في موزمبيق الآن من فيضانات تكاد تُغرق الناس ، وهناك آلاف مؤلِّفة فوق أسطح المنازل والأشجار ، لا تجد مَنْ ينقذها .

فقلتُ للابن العزيز : أنا لا أتحدَّث عن الناس من منطلق جغرافيٍّ ، ولا من منطلق عرقيٍّ . فلا يهمنيُّ عربٌ ولا عجمٌ ، ولا أفارقة ، ولا آسيويون ، ولا أوروبيون . أنا أتحدَّث عن المآسي التي يقع فيها الناس عامَّة ، والمسلمون خاصَّة ، وأتحدَّث عن أشدها سخونة ، وأكثرها مأساويَّة . لذلك تحدَّثتُ في الأسبوع الماضي عن مأساة الشيشان ، فهي المأساة الحيَّة الساخنة التي نشاهدها بأعيننا كلَّ يوم ، وتحدَّثتُ عن مأساة فلسطين وهي المأساة القديمة الجديدة ، وتحدَّثتُ عن إندونيسيا وهي في أقصى الشرق ، وتحدَّثتُ عن كشمير ، هذه المأساة القديمة الجديدة التي يعاني أهلها ما يعانون .

أتحدَّث عن المآسي بغضِّ النظر عن مكانها ، وبغضِّ النظر عن جنس أهلها ، أنا لا أتعصَّب لجنس ولا لعرق ولا لون ولا لإقليم مُعيَّن ، أنا أتحدَّث عن مآسي الأمة .

(١) رواه الطبراني (٨٢/١١) ، وقال الهيثمي في المجمع (٨/٤) : رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح ، وجود إسناده المنلري في الترغيب والترهيب (١٢٧/٢) ، عن ابن عباس .

(٢) رواه مسلم (١١٦٢) ، وأبو داود (٢٤٢٥) ، والترمذي (٧٤٩) ، والنسائي في الكبرى (٢٨٢٦) ، وابن ماجه (١٧٣٠) ، جميعهم في الصوم ، عن أبي قتادة .

ولكن ليس معنى هذا أننا لا نتحدث عن مأساة موزمبيق وما يجري فيها ، وكان ينبغي على العرب والمسلمين أن يقوموا بدورهم - خصوصاً الأفارقة منهم - في إنقاذ هؤلاء الذين نراهم على أسطح المنازل بعشرات الآلاف ، ولا يجدون مَنْ ينقذهم .

عدّة طائرات ، خمس طائرات ظلّت تنقل المؤمن ، وتذهب وتعود . لماذا لا تذهب طائرات أخرى؟ لو من كلّ بلد طائرة ، نستطيع أن ننقذ هؤلاء الناس ، حتى لو لم يكن أهل هذه البلاد مسلمين ، فنحن مع الإنسان من حيث هو إنسان ، والله يُحبُّ إغاثة الملهوف ، ونُصرة المظلوم ولو كان كافراً ، وفي الحديث : «دعوة المظلوم مستجابة ، وإن كان فاجراً ، ففجوره على نفسه»^(١) .

وإذا كان الإسلام يأمرنا بالرحمة بالحيوان الأعجم ، بالكلاب وبالقطط وبغيرها ، «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها»^(٢) . ودخل رجل الجنة في كلب سقاه ، وكان يلهث يأكل الثرى من شدة العطش «فشكر الله له فغفر له» . قال الصحابة : يا رسول الله ، وإن لنا في البهائم لأجراً ؟ فقال : «في كلّ كبد رطبة أجر»^(٣) . فكيف لا يأمرنا بالرحمة بالإنسان ؟

علينا أن نسعف إخواننا هؤلاء ، وأن نُشدّ أزهرهم ، ونُغيث لهفتهم ، ونُفرّج كُربتهم ، فهذا هو خلق الإسلام ، وهذا هو منهج الإسلام .

(١) رواه أحمد (٨٧٩٥) ، وقال مخرجه : إسناده ضعيف ، والطالسي في مسنده (٢٣٣٠) ، والقضاعي في مسند الشهاب (٣١٥) ، وحسّن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (١٣٠/٣) ، والهيثمي في المجمع (٢٣٠/١٠) ، وابن حجر في الفتح (٣٦٠/٣) ، عن أبي هريرة . قال المناوي في شرحه : يحتمل أن يريد بالفاجر الكافر ، ويحتمل أن يريد الفاسق ، وينبغي أن يعتقد أن دعوة المظلوم مستجابة ، ولا ينافيه عدم ظهور أثرها حالا ، لأنه تعالى ضمن الإجابة لدعائه في الوقت الذي يريد ، لا في الوقت الذي تريد . (فيض القدير : ٥٢٦/٣) .

(٢) سبق تخريجه ص ٦٨ .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في المظالم (٢٤٦٦) ، ومسلم في السلام (٢٢٤٤) ، كما رواه أحمد (٨٨٧٤) ، وأبو داود في الجهاد (٢٥٥٠) ، عن أبي هريرة .

اللهم هبِّي لنا من أمرنا رشداً ، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك ، اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا ، واجعل غدنا خيراً من يومنا ، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

اللهم انصر إخواننا في الشيشان (ثلاثاً) ، وانصر إخواننا في فلسطين وفي لبنان ، وانصر إخواننا في كشمير ، وانصر إخواننا في الفلبين ، وانصر إخواننا في كل مكان .

اللهم اجمع كلمة المختلفين من المسلمين على الهدى والتقى ، اللهم أصلح ذات بينهم ، اللهم لا تكلهم إلى أنفسهم طرفة عين ولا أقل من ذلك .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٧) .

وأذكّر الإخوة بالتبرّع للأضاحي في هذه الأيام قبل العيد لمنظمة الدعوة الإسلامية وجمعية قطر الخيرية وغيرها ، وذلك في ميزانكم حسنات ودرجات إن شاء الله .

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة: ١٠٥) .

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٥) .

* * *

(٩) رعاية المُسنِّين^(١)

الخطبة الأولى :

أما بعد ، أيها الإخوة المسلمون :

أعلنت منظمة الصحة العالمية هذا العام^(٢) : (العام الدولي للمسنِّين) .

وقد دعتنا المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية في الكويت لإقامة ندوة علمية فقهية ، شرعية طبية للحديث عن حقوق المُسنِّين والمُسنَّات في ضوء الشريعة الإسلامية^(٣) .

وبحمد الله لم يوجد دينٌ عُنِيَّ بحقوق الشيوخ وكبار السنِّ كما عُنِيَ هذا الدين .

عناية الإسلام بالإنسان في جميع مراحل عمره :

الدين الإسلامي يُعنى بالإنسان ، يُعنى بالإنسان طفلاً ، ويُعنى بالإنسان صبيّاً ، ويُعنى بالإنسان شاباً ، ويُعنى بالإنسان كهلاً ، ويُعنى بالإنسان شيخاً . إنه يمضي مع الإنسان في رحلة حياته كلّها ، من المهد إلى اللحد ، من صرخة الوضع إلى أنّة النزاع . يُشرِّع لهذا الإنسان ويوجِّهه في جوانب حياته كلّها ، والله تعالى يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيِّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: ٨٩).

(١) أُلقيت في جامع عمر بن الخطاب بالدوحة في رجب ١٤٢٠هـ الموافق نوفمبر ١٩٩٩م .

(٢) أي العام الميلادي (١٩٩٩) .

(٣) عقدت الندوة في الفترة من ٩-١٢ رجب ١٤٢٠هـ الموافق ١٨-٢١ أكتوبر ١٩٩٩م . وقد شارك

سماحة الشيخ القرضاوي ببحث عنوانه : (حقوق الشيوخ والمسنِّين في ضوء شريعة الإسلام).

الشيخوخة مرحلة طبيعية من مراحل حياة الإنسان :

ولذلك عني الإسلام بمرحلة الشيخوخة ، ومرحلة الشيخوخة مرحلة طبيعية من مراحل حياة الإنسان ، أشار القرآن إليها حينما قال : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ﴾ (غافر: ٦٧) ، فأشار إلى المرحلة الجنينية ، والمرحلة الطفولية ، ومرحلة بلوغ الأشد ، وتشمل : مرحلة الشباب والكهولة . ثم مرحلة الشيخوخة ، ﴿ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ﴾ .

هكذا لا بد أن يصل الإنسان - إذا لم يدركه الموت في الصغر - إلى الشيخوخة .

الشيخوخة مرحلة ضعف :

والشيخوخة مرحلة ضعف ، فإن السنين تعمل عملها في الإنسان كما تعمل عوامل التَّحَاتِّ والتَّعْرِية في الأرض ، وفي المادة ، وفي الحياة الطبيعيَّة ، كذلك مُضِيَّ السنين والأعوام يعمل في الإنسان ، فيضعف بعد قوَّة ، وتقلُّ حواسُّه من السمع والبصر ، ويضعف إدراكه ، ويعتمد على عكَّاز بعد أن كان يمشي على رجليه سليمتين ، كما قال الشاعر قديماً :

وكنْتُ أمشي على رجلين معتدلاً فصرْتُ أمشي على أخرى من الشجر
هذه سنَّة الحياة .

أشباب الصغيرِ وأفنى الكبيرِ كرُّ الغداة ومرُّ العشيِّ
ويقول الآخر :

طول الليالي أسرع في نقضي نقضن كلَّسي ونقضن بعضي
هذه سنَّة الله : أن يشيب الصغير ، ويفنى الكبير ، ويضعف القوي ، ويمرض الصحيح ، يقول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ (الروم: ٥٤) ، ضعف الطفولة ، ثم قوَّة الشباب ، ثم ضعف الشيخوخة وشيبتها ، هذه مراحل لا بد أن يمرَّ بها الإنسان ، إذا كتب له أن يعمَّر .

مرحلة أرذل العمر :

ومن الشيخوخة مرحلة متأخرة سمّاها القرآن : أرذل العمر : ﴿ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ (الحج: ٥) . أرذل العمر كما قال ابن عباس : أرذؤه . بحيث يصبح كالصبي الصغير ، يحتاج إلى غيره في كلِّ الأشياء أو معظم الأشياء . والنبيُّ عليه الصلاة والسلام استعاذ بالله من أمور خمسة ، قال : « اللهم إني أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجُبْن ، وأعوذ بك أن أُردَّ إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر»^(١) . استعاذ بالله أن يُردَّ إلى أرذل العمر ، فينسى بعد تذكُّر ، ويضعف بعد قوَّة ، ويصبح كلاً على غيره ، حين تصيبه أمراض الشيخوخة القاسية ، فهذا مما يُستعاذ بالله تعالى منه .

الإنسان إذا بلغ من الكِبَر عتياً ضعُف واحتاج إلى غيره ، وقد عبَّر عن ذلك نبيُّ الله زكريا حينما قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ (مريم: ٤) .

هذه طبيعة الإنسان : أن يهِنَ عظمه ، وتضعف قوَّته وحيلته ، ويفتقر إلى معونة غيره ، بعد أن كان هو الذي يعين غيره ، ويعول أولاده ، ويفكر لهم في مستقبلهم ، أصبح في حاجة إلى معونة أولاده في كل شيء ، في مأكله ومشربه ، وملبسه ، ومرقده ، حتى يحتاج أحيانا إلى مَنْ يعينه في قضاء حاجته البشرية ! .

حقوق المُسنِّين :

هنا يوجب الإسلام لهذا الإنسان الضعيف حقوقاً مؤكَّدة : حقوقاً مادية ، وحقوقاً أدبية .

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٦٥) ، وأحمد (١٥٨٥) ، والنسائي في الاستعاذة (٥٤٤٥) ، عن سعد بن أبي وقاص .

أولاً : الحقوق المادية :

مِنْ حَقِّ هَذَا الْإِنْسَانِ أَنْ يَعِيشَ مَكْفُولَ الْحَاجَاتِ الْمَادِيَّةِ ، لَا بَدَأَ أَنْ يُوفَّرَ لَهُ مَطْعَمُهُ ، وَيُوفَّرَ لَهُ مَشْرَبُهُ ، وَيُوفَّرَ لَهُ مَلْبَسُهُ ، وَيُوفَّرَ لَهُ مَسْكَنُهُ ، وَتُوفَّرَ لَهُ أَدْوِيَّتُهُ ، وَكُلُّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، هَذِهِ الْأُمُورَ لَا بَدَأَ أَنْ تُوفَّرَ لَهُ .

الحقوق المادية واجبة على الأسرة :

وأول مَنْ يَنْبَغِي أَنْ يُوفَّرَ لَهُ هَذَا ، هُوَ أُسْرَتُهُ ، وَأَوْلَادُهُ ، فَلَهُ حَقٌّ عَلَيْهِمْ . كَمَا أَنَّهُ رَبَّاهُمْ صِغَارًا ، يَجِبُ أَنْ يَكْفُلُوهُ وَهُوَ كَبِيرٌ ، فَهَذَا حَقٌّ مِنْ حَقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْوَالِدِ ، وَمِنْ حَقُوقِ الْوَالِدِينَ عَلَى أَوْلَادِهِمْ ، لَا يَجُوزُ لَهُمْ أَنْ يُفْرَطُوا فِيهِ بِوَجْهِ مِنَ الْوَجُوهِ ، وَلَا أَنْ يَمْتَثُوا عَلَى آبَائِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ بِهَذَا ، فَهَذَا حَقٌّ مُؤَكَّدٌ .

ولذلك لم يُجْزِ الْفُقَهَاءُ أَنْ يَعْطِيَ الْإِنْسَانُ زَكَاتَهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ ، لِمَاذَا؟ لِأَنَّ نَفَقَتَهُمْ وَاجِبَةٌ عَلَيْهِ ، فَكَأَنَّمَا يَعْطِي لِنَفْسِهِ ، هُوَ لَا جِزَاءَ مِنْكَ . جِزَاءَ مَنْ أُسْرَتِكَ . لَا يَجُوزُ لَكَ أَنْ تَعْطِيَ الزَّكَاةَ لِابْنِكَ ، وَلَا يَجُوزُ لَكَ أَنْ تَعْطِيَهَا لِأَبِيكَ .

وَحِينَذَا ذَهَبَ أَحَدُ الْوَالِدِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَشْتَكِي لَهُ أَنَّ أَبَاهُ يَرِيدُ أَنْ يَجْتَاجَ مَالَهُ - كَأَنَّ أَبَاهُ قَدْ أَكْثَرَ عَلَيْهِ ، وَيَرِيدُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَصْلِ الْمَالِ لَا مِنْ فَضْلِ الْمَالِ - قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : « أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ »^(١) . إِذَا احتَاجَ فَأَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ .

وعندما يصاب الإنسان في شيخوخته - أبا كان أو أما ، جدا كان أو جدة - بأمراض الشيخوخة الخطيرة ، التي تُعيد الإنسان طفلاً ، لا يكاد يعرف من حوله ، ولا أولاده وأحفاده ، أنفسهم كما في المرض الذي يعرف باسم (الزهايمر) ، وهنا يحتاج المريض إلى رعاية بالغة ، وقد يحتاج إلى ممرض دائم معه .

هذا ما يقرره الشرع الحنيف في هذه القضية .

(١) رواه ابن ماجه في التجارات (٢٢٩١) ، والطبراني في الأوسط (٣٥٣٤) ، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١٥٨/٤) ، وصححه الألباني في الإرواء (٨٣٨) ، عن جابر بن عبد الله .

الحقوق المادية واجبة على المجتمع :

وإذا لم يكن الأولاد قادرين ، فعلى المجتمع أن يسدَّ هذه الحاجة . الإسلام يجعل أهل كلِّ حيٍّ - أو أهل كلِّ قرية أو أهل كلِّ عَرْصَة - متكافلين فيما بينهم ، يأخذ القويُّ بيد الضعيف ، ويصبُّ الغنيُّ على الفقير ، ويحمل المسلمون بعضهم بعضاً ، فكانهم أسرة واحدة : « ما آمن بي مَنْ بات شبعاناً ، وجاره جائع إلى جنبه ، وهو يعلم »^(١) ، « وأيُّما أهل عَرْصَة - أي : ساحة - أصبح فيهم امرؤ جائع ، فقد برئت منهم ذمَّة الله »^(٢) .

وإذا لم يكفِ ذلك يُؤخذ من موارد الدولة . موارد الدولة قد تكون من الزكاة ، قد تكون من خمس الغنائم ، قد تكون من الفيء ، قد تكون من الخراج ، قد تكون أملاك الدولة . ممَّا يفِيء الله عليها من باطن الأرض ، من البترول ، من الذهب ، من المعادن ، من أشياء أخرى تملكها ، من ضرائب التكافل وغيرها . . . كلُّ هذا لهؤلاء الشيوخ الضعفاء حقٌّ فيه ، ولا يجوز أن يذهب هذا الحقُّ ، ولا أن يضيع أبداً في أمة مسلمة .

تطوُّر هذه الحقوق بتطوُّر الزمن :

الشيوخ لهم حقوقٌ مؤكَّدة ، وهذه الحقوق تتطوُّر بتطوُّر الزمان . ربما في الزمن الماضي لم يكن الإنسان المسنُّ في حاجة إلى ما يحتاج إليه في عصرنا ، مثلاً في

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٢) ، وأبو يعلى (٢٦٩٩) ، والطبراني (١٥٤/١٢) ، والبيهقي في الضحايا (٣/١٠) ، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢٤٣/٣) ، والهيثمي في المجمع (٣٠٦/٨) : رواه الطبراني وأبو يعلى ورجاله ثقات ، وصحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٨٢) ، عن ابن عباس .

(٢) رواه أحمد (٤٨٨٠) ، وقال منخرجه : إسناده ضعيف لجهالة أبي البشر ، وأبو يعلى (٥٧٤٦) ، والحاكم في البيوع (١٢/٢) ، وقال : خرجته وإن لم يكن من شرط الكتاب احتساباً لما فيه الناس من الضيق . وقال الذهبي : عمرو بن الحصين العقيلي : تركوه ، وأصبغ بن زيد الجهني : فيه لين ، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٦٣/٢) : وفي هذا المتن غرابة وبعض أسانيده جيدة ، عن ابن عمر .

عصرنا يحتاج إلى مكثف - خصوصاً في بلاد الخليج - فيلزم أن نهى له مكثفاً ، وإذا احتاج إلى ثلاثة لا بد أن نهى له ثلاثة . في عصرنا أصبح هناك شيء اسمه : الكرسي المتحرك ، كي يستطيع هذا المسن العاجز عن المشي أن يتحرك ، فيهيئ له هذا الكرسي .

أرى الغربيين - في الحقيقة - اهتموا بالمعوقين من البشر في كل ناحية من النواحي : في مواقف السيارات ، في الحمامات ، في المطارات ، في كل شيء عندهم يحسب حساب هؤلاء المعوقين ، وكيف يتحركون دون عائق يعوقهم ، وهذا ما يوجهه الإسلام علينا .

ثانياً : الحقوق الأدبية :

الإسلام لا يوجب علينا أن نرعى حقوقهم المادية فقط ، بل حقوقهم الأدبية أيضاً ، فالمسن يحتاج للحقوق المعنوية أكثر من حاجته للماديات .

توفير الجو الاجتماعي :

بعض الناس يظن أن أباه يحتاج إلى أن يأكل ويشرب فقط ، فيضعه في بيت المسنين ، أو العجزة كما يسمونهم - وهذه تسمية خاطئة ، ولا يجوز أن نسميهم بها ، ولكن : كبار السن أو الشيوخ أو نحو ذلك - فإذا وضعه في هذه الدور ، شعر بأنه أدى ما عليه ، لا يا أخي ، الإنسان له أشواق ، وطموحات ، وحقوق أدبية . من حق الأب ، ومن حق الجد : أن يعيش مع أولاده ، ويعيش مع أحفاده ، ويسمع الأحفاد حكايات جدّهم ويتعلموا من تجاربه ، ويؤنسهم ويؤنسونه . أما أن ترميه في المصححة أو في دار العجزة أو المسنين وتقول : أدت ما علي . فهذا لا يعرفه الإسلام .

الوصية بالوالدين في حالة بلوغ الكبر :

الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣﴾ (الإسراء: ٢٣، ٢٤) ، القرآن وصى بالوالدين بصفة عامة ، وخصّ

هذه الحالة - حالة بلوغ الكبر - بالذكر ، وقال : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ (الإسراء: ٢٣) ، عندك ، في بيتك ، في دارك ، وليس في المصححة .

نهيان وثلاثة أوامر :

﴿ فَلَا تَقُلْ هُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا ﴾ (الإسراء: ٢٣) ، هذان نهيان :

١- النهي عن ﴿ أَفٍ ﴾ ، عن مجرد التأفف ، التضجر ، سواء كان بالكلام كأن تقول : أف ، أو بالنفس ، فمجرد النفخة هذه حرام . بعض السلف يقولون : لو كان هناك شيء أقل من ﴿ أَفٍ ﴾ لحرمه الله .

٢- ﴿ وَلَا تَنْهَرُهُمَا ﴾ ، لا تكلمهما بعنف .

ثم قال : ﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ (١٦) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (الإسراء: ٢٤) ، فهى عن أمرين ، وأمر بثلاثة أمور :

١- ﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ ، القول الكريم هو القول اللين ، القول الحسن ، كأن يقوله له : يا أبت ، كما رأينا سيدنا إبراهيم يقول لأبيه وهو مشرك : ﴿ يَتَأْتِبِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ (١٦) يَتَأْتِبِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ (١٧) يَتَأْتِبِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ (١٨) يَتَأْتِبِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ (مریم: ٤٢-٤٥) .

٢- ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ ، الله تعالى قال لرسوله : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٥) ، ولكن هنا قال : ﴿ جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾ ، ليس مجرد خفض جناح ، ولكنه جناح الذل . ولم يمدح الله الذل في القرآن إلا في موضعين : هذا الموضع ، وموضع آخر حينما قال : ﴿ أَدْلَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (المائدة: ٥٤) ، ذل الإنسان لأبويه ، وذل الإنسان لأخيه المؤمن .

٣- ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾، ادع لهما أن يرحمهما الله في حياتهما وبعد موتهما . وكان بعض السلف إذا ذهب إلى أمه صاح بأعلى صوته : السلام عليك ورحمة الله وبركاته يا أمته ! تقول : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . يقول : رحمتك الله كما ربيتني صغيراً . فتقول : يا بني ! وأنت ، فجزاك الله خيراً ورضي عنك ، كما بررتني كبيراً^(١) . انظر إلى هذه العلاقة الطيبة الحسنة .

على الإنسان أن يرضى هذه العلاقة .

الإحسان إلى الأبوين سببٌ للمغفرة :

يستطيع الإنسان أن يكسب المغفرة ، وأن يربح الجنة ، إذا أحسن إلى أبويه أو أحدهما في حالة الكبر . جاء عن النبي ﷺ قوله : « رغم أنفه^(٢) ، ثم رغم أنفه ، ثم رغم أنفه » . أي : ذلٌّ ، وذلٌّ ، وذلٌّ . قيل : مَنْ ، يا رسول الله؟ قال : « مَنْ أدرك وأبويه عند الكبر ، أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة^(٣) » . لم يتوصل إلى الجنة من خيبته ، ضيَع الجنة ، وكان يمكن أن يكسبها ببرِّ والديه في هذه الحالة .

روى البزار ، أنّ رجلاً كان يطوف بالكعبة وهو يحمل أمه على كتفه ، فراه النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، هل أدتُ حقها ؟ فقال ﷺ : « لا ، ولا بزفرة واحدة^(٤) » . أي : حَمَلُكَ لأمِّكَ هذا لم يُؤدِّ حقَّ زفرة واحدة من زفرات الطلق ، وآلام الوضع .

وجاء رجل إلى عمر رضي الله عنه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، لقد بلغ برِّي بأمي ، أنها لا تقضي حاجتها إلا وظهري لها مطية - أحملها إلى المرحاض كما كانت تفعل بي في صغري ، فأنا أوْدِي إليها ما كانت تؤدِّي إليَّ - هل وفيتُ حقها؟ فقال عمر :

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٤) ، وحسن إسناده الألباني في صحيح الأدب المفرد (١١) .

(٢) أي : لصق بالرغام ، وهو التراب .

(٣) رواه مسلم في البرِّ والصلة (٢٥٥١) ، وأحمد (٧٤٥١) ، والبخاري في الأدب المفرد (٢١) ، والترمذي في الدعوات (٣٥٤٥) ، عن أبي هريرة .

(٤) رواه البزار (٤٣٨٠) ، وذكره الحافظ ابن كثير بسند البزار في تفسيره (٣٥/٣) ، وقال : فيه الحسن ابن أبي جعفر .

لا ، إنها كانت تفعل بك ذلك وتتمنى لك عُمرًا طويلاً ، وأنت تفعل بها ذلك وأنت تترقب موتها غداً أو بعد غد^(١) . فرق بين الأمرين .

الحقُّ الأدبيُّ على الإنسان : أن يرمى أبويه ، ليس مُجرِّد رمية في المصححة . المصححات لا بدَّ منها ، لأنَّه قد يوجد من الناس مَنْ لا عائلة له ، وقد يوجد ابن فقير لا يستطيع أن يحتوي أباه في بيته ، بيته من حجرتين فماذا يفعل هذا المسكين؟ هذا يذهب بأبيه إلى المصححة ، ومع هذا فلا بدَّ لهذا الأب أن يزور بيت أولاده ما بين الحين والحين ، ولا بدَّ أن يزوروه .

وهناك في بعض البلاد تُقام أندية للمسنِّين ، يقضون نهارهم في هذه الأندية بعضهم مع بعض ، ثم يعودون إلى البيت في المساء ، حيث يذهب الجميع في النهار - وخصوصاً في عصرنا - إلى أعمالهم ، الابن يعمل ، وزوجة الابن تعمل ، والأولاد في المدارس ، ويبقى الرجل المسكين وحده ، فحياته موحشة ؛ فلذلك أقاموا أندية للمسنِّين ، هذا لا بأس أن نقيمه في بلادنا ، وفي مجتمعاتنا .

الإسلام لا يمنع من إقامة مثل هذه الدُّور ، لتقوم بحقِّ هؤلاء الشيوخ الكبار ، والمُسَنِّات من النساء أيضاً ، هذا واجبنا - أيها الإخوة - وواجب المجتمع أن يعين في ذلك أيضاً .

توقير الكبار قيمة إسلامية :

واجب المجتمع أن يُوقَّر الكبار ، وأن يُؤدِّي إليهم حقَّهم ، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام يقول : « ليس منا مَنْ لم يُجَلِّ كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقَّه »^(٢) . فرحمة الصغير ، وتوقير الكبير ، واحترام العالم ، قيم إسلامية أصيلة ، لا يجوز أن تُفقد هذه القيم ، وتصل إلينا قيمٌ أخرى غريبة عن هذه المجتمعات ،

(١) روه ابن وهب في جامع الحديث (٩٠) .

(٢) رواه أحمد (٢٢٧٥٥) ، وقال مخرجه : صحيح لغيره دون قوله : « ويعرف لعالمنا حقَّه » . والطحاوي في مشكل الآثار (٣/٣٦٥) ، والحاكم في العلم (١/١٢٣) ، وقال : ومالك بن خير الزيادي مصري ثقة ، وأبو قبيل تابعي كبير ، وقال الذهبي : مالك ثقة مصري ، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (١/٦٤) ، عن عبادة بن الصامت .

يرى الرجلُ فيها الشيخَ الكبيرَ فلا يعينه ، يركب الشيخَ الباص - أو الأوتوبيس - وهو يحتاج إلى مَنْ يجلسه ، ويظلُّ الشابُّ جالساً في مكانه . هذه قيم غربية عن هذه المجتمعات .

المجتمع المسلم يوقِّرُ الكبيرَ ، وكما قال الحديث الذي رواه الترمذي : « ما أكرم شابُّ شيخاً لسنِّه ، إلا قيَّضَ الله له مَنْ يكرمه عند سنِّه »^(١) . إذا أكرمتَ شيخاً وأنت شابُّ ، جزاك الله من جنس عملك فهياً لك وأنت شيخٌ مَنْ يكرمك ، وأنت في حاجة إلى الإكرام .

هذه الأمور كما يقول الناس : سَلَفٌ ، البرُّ سَلَفٌ ، والعقوق سَلَفٌ : « برُّوا آباءكم تبرُّكم أبناؤكم »^(٢) ، وهكذا .

الإسلام يرفعى هؤلاء المُسنِّين حقَّ الرعاية .

المسنُّ يعيش وحده في الحضارة الغربية :

لا يجوز لنا - أيها الإخوة - أن تنتقل إلينا عدوى الغربيين ، الذين تفكَّكت أسرهم ، فلا يكاد الابنُ يعرف أباه أو أمه بمجرد أن يبلغ الحُلُم . إذا بلغ الشابُّ ستة عشر عاماً أصبح حبله على غاربه ، وبحث له عن صديقة ، وبحث الفتاة عن صديق ، ولا يكاد أحدهما يعرف أمه أو أباه ؛ ولذلك احتاجوا إلى أن ينشئوا عيداً للأُم ، وعيداً للأب . يوماً في العام ، يتذكَّر الواحد منهم أنَّ له أباً أو أمّاً! وماذا يفعل؟ لعله يرسل إليه بهديَّة ، يرسل إلى أمِّه بزجاجة عطر أو نحو ذلك! هل هذه حياة؟ ولهذا يعيش أحدهم في شيخوخة مُوحشة ، الشيخوخة هناك مُوحشة أشدَّ الإيحاش ، لأنَّ الإنسان يعيش وحده ، لا يتمتَّع فيها بابن ولا بنت ، ولا حفيد ولا حفيذة .

(١) رواه الترمذي في البرِّ والصلة (٢٠٢٢) ، وقال : هذا حديث غريب ، والطبراني في الأوسط (٥٩٠٣) ، والبيهقي في الشعب باب رحم الصغير وتوقير الكبير (١٠٩٩٣) ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٠١٢) ، عن أنس بن مالك .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (١٣٤٠٣) ، وقال الهيثمي في المجمع (٢٥٧/٨) : رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني أحمد غير منسوب ، والظاهر أنه من المكثرين من شيوخه فلذلك لم ينسبه .

الإسلام لا يرضى بهذه الحياة .

حدّثني بعض الإخوة : أنهم كانوا يجاورون امرأة عجوزاً في أمريكا ، بعد أيام افتقدوها ، لم يعودوا يسمعون لها صوتاً ، أو يروّنها وجهاً ، فأبلغوا الشرطة ، دخلت الشرطة شقة هذه المرأة وفتحتها ، فوجدت المرأة (رمةً) متعفّنة ، ماتت من عدّة أيام ، ولا يعرف أحدٌ بموتها . وبحثوا فوجدوا لها أبناء وبنات ، وأحفاداً وحفيدات في مناصب محترمة ، ولكنهم تركوها وحدها . ماتت ، ولعلها كانت تحتاج إلى شربة ماء ، علّها كانت تحتاج إلى حبة دواء تنقذها ، ماتت ولم تجد مَنْ يجلس بجوارها في الساعة الأخيرة واللحظات الأخيرة .

أي حياة هذه الحياة التي يحيها الناس؟

لهذا احتاج الناس في تلك الديار إلى اقتناء الكلاب والقطط! لأنهم وجدوا الكلاب أكثر وفاء من الإنسان ، الكلب أحسن من ابنك الذي يتركك ولا يسأل عنك ، والكلب يلزمه ويتبعه ويفي له .

لا يجوز لنا - أيها الإخوة - أن نمشي وراء هذه المجتمعات ، ونفقد خصائصنا الذاتية ومقوماتنا الذاتية والحضارية ، ونمشي وراءهم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلناه ، والعياذ بالله .

حاجة المسنّين إلى أسرة :

علينا أن نرعى هؤلاء المسنّين والمسنّات ، وأن نحضنهم في ديارنا ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً .

بعض البلاد تُبقي الآباء عند أبنائهم وأحفادهم وتدفع لهم هي - أو الجمعيات الخيرية - معونات ، وتقول لهم : خلّوا هؤلاء عندكم . حتى مَنْ ليس له أسرة تجعله عند أسرة من الأسر وتدفع معونة لهذه الأسرة ، لأن الإنسان في حاجة إلى أن يعيش في أسرة ، الأسرة ليست مجرد مكان أو مسكن ، إنها حاجة نفسية ، وحاجة اجتماعية ، لا يستطيع الإنسان أن يستغني عنها

نسأل الله تبارك وتعالى أن يفقِّهنا في ديننا ، وأن ينير بصائرنا ، وأن يهيئَ لهذه الأمة من أمرها رشداً ، إنه سميع قريب .
أقول قولِي هذا - أيها الإخوة والأخوات - وأستغفر الله تعالى لي ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

الخطبة الثانية :

أما بعد ، فيا أيها الإخوة :
يحتار الإنسان ، وينقطع نياط قلبه ، وتتفتت كبده ألمًا وحسرة ، على ما يحدث للمسلمين في كلِّ مكان .

ماذا أحدثتكم أيها الإخوة؟ عن أيِّ القضايا أحدثتكم وهي كثيرة؟

القضية الأولى : قضية الشيشان :

أحدثتكم عن قضية إخوتنا في الشيشان ، الذين يتعرضون لغزو جهنمي ظالم ، عدواني أليم ، من تلك القوة المتجبرة ، التي أذلها الله تبارك وتعالى ، وأخرجها من حلبة الصراع العالمي؟

سقط الاتحاد السوفيتي ، وخرج من حلبة الصراع ، وترك الميدان لأمريكا ، ولكن هؤلاء الروس - ورثة السوفييت - يتجبرون على الضعفاء من الناس ، يتجبرون على دولة الشيشان ، يريدون أن يخضعوها لإرادتهم حتى ترقع أمامهم ، وتستسلم لأوامرهم .

ورغم أن دولة الشيشان دولة مسلمة شهدت (أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله) ، إلا أن هؤلاء يريدون أن يخضعوا لهم من ليس من دينهم ، وليس من جنسهم ، وليس من وطنهم .

هؤلاء الشيشانيون ليسوا من الروس بل هم من القوقاز ، وليسوا من الشعب الروسي بل الشعب القوقازي ، وليسوا نصارى بل هم مسلمون . فعلى أيِّ أساس يريدون أن يخضعوا هؤلاء؟

وقد جربوا حظهم معهم منذ سنوات ، ولم تستطع القوة الروسية المستكبرة في الأرض بغير الحق ، لم يستطع هؤلاء الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد :

أن يذُلُّوا الشيشان ، وأن يرغموا الشيشان على قبول إرادتهم . وقف الشيشانيون أبطالاً صامدين كالجبال الشَّمَّ الرواسخ ، لم تُزحزحهم العواصف ، واضطَّرَّ الروس إلى أن يعودوا مقهورين مدحورين .

اليوم تريد روسيا أن تُجربَّ حظَّها مرَّةً أخرى . لقد هدَّت (جروزي) ، وهدَّت الشيشان ، هدمت المساجد ، وهدمت المدارس ، وخرَّبت المصانع ، وتركت الأرض محروقة وراءها ، ومع هذا لم يستسلم الشيشانيون ، ولم يركعوا ، لأنهم تعلموا أن لا يركعوا إلا لله ، وأن لا يسجدوا إلا لله ، وأن لا يُعفِّروا جبهتهم إلا لله ساجدين . رفضوا وقالوا : لا .

اليوم تعود روسيا لتُجربَّ حظَّها مرَّةً أخرى ، لماذا؟ قالوا : لمحاربة الإرهاب! أيُّ إرهاب هذا؟ قلتُ : الإرهاب في داغستان . الآن الأمر استتبَّ في داغستان . هل هو إرهاب حقاً؟ إنَّ الإرهابيَّ الآن هم هؤلاء الروس ، يشاركون (إسرائيل) الإرهابيَّ الأكبر في العالم ، وإسرائيل أصابعها معهم . فُتِّش عن إسرائيل وفُتِّش عن الصهيونية في كلِّ ما يحدث في العالم ، تجد أصابع الصهيونية وأيدي إسرائيل هناك .

هذه حقيقة يجب أن لا ننساها .

إخوتنا في الشيشان يقاتلون ، ويصمدون ، ولم يقبلوا الاستسلام .

المشكل : أين العالم؟ أين هيئة الأمم المتحدة؟ أين أمريكا؟ نسمع استنكارات خافتة أو دعوات ليس فيها قوَّة . لماذا لم تتحرَّكوا كما تحركتم من قبل في يوغسلافيا ، وفي كوسوفا .

وأين العالم الإسلاميُّ؟ لماذا لم يتحرَّك الناس؟ لماذا لم نسمع كلمة استنكار صارخة قوية تقول : لا ، هذا بلد مسلم ، لا يجوز لكم أيها الروس أن تعتدوا على أهله؟ رأينا صمَّتا كصمت القبور .

ألهدنا الحد نجامل الروس على حساب إخوتنا؟ تُنتهك الأعراض والحرُّمات ، وتُدَمِّر البلاد ، ويُقتل العباد ، وتُزهق الأرواح ، وتُسفِّك الدماء ، ونحن صامتون؟

لو أن بلاد المسلمين وحكام المسلمين قالوا : لا . والله لوقف الروس ولاستحيوا
وخجلوا . ولكن لم يقل لهم أحد : قفوا ، هذا لا يجوز .

لم هذه المجاملات إلى هذا الحد؟
أصبح الدم الإسلامي رخيصاً إلى هذا الحد ، بحيث يُسفك ، وتزهق الأرواح ،
ولا يتكلم أحد ، ولا يحتج أحد ، ولا يستنكر أحد؟
أين أمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها؟
أين المؤتمر الإسلامي ومنظمة المؤتمر الإسلامي؟
أين الجهات والجمعيات والمؤسسات المختلفة هنا وهناك؟
لم نرَ أحداً تحرك ، إلا مظاهره قرأنا عنها وشاهدناها في التلفاز ، قامت في
الأردن - لأنَّ هناك شاشانيين من قديم ، وشارك فيها الإسلاميون أيضاً - تحتجُ على
ما يجري لإخوتنا في الشيشان .

ونحن نقول لإخوتنا في الشيشان : اصبروا وصابروا ، وربطوا ، والله تعالى
معكم ، ولن يترككم أعمالكم . والشعوب الإسلامية معكم ، وإن كانت لا تملك من
أمرها شيئاً للأسف ، ولكن هذه القلوب بحرارتها ، وهذه الألسنة التي تهتف
بالدعاء ، لن تتخلى عنكم أبداً .

والله سبحانه وتعالى وملائكته وجنوده يؤيدونكم ، وَيَشُدُّونَ أَزْرَكمُ : ﴿ وَاللَّهُ
جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح: ٧) ، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ
رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (المدثر: ٣١) .

القضية الثانية : قضية فلسطين :

أأحدتكم أيها الإخوة عن الشيشان ، ومأساة الشيشان؟ أم أحدتكم عن القضية
التي لا ينتهي الحديث عنها أبداً : قضية المسلمين الأولى ، قضية القدس ، والمسجد
الأقصى ، وأرض النبوات ، أرض الإسراء والمعراج ، ونحن الآن في ذكرى الإسراء
والمعراج؟

أأحدتكم عن هذه القضية وما يُحاك لها من مؤامرات ، وما يُبيت لها من تدبير؟
نرى القضية لا تتقدم خطوة إلى الأمام إلا بتنازلات ، تنازلاً وراء تنازل ، إلام
تنازل؟ وحتى متى تنازل؟

كنا نقول في أول الأمر : إسرائيل كياناً قائم على العدوان والاعتصاب ، لا مكان له في أرضنا ، ولا وجود له ، ولا يستحقُّ البقاء . حتى حدثت نكبة (٥ حزيران - أو ٥ يونيو - سنة ١٩٦٧م) ، فانقلبت السياسة العربية ظهراً على عَقَب ، وقالوا : إننا الآن نسعى إلى إزالة آثار العدوان - أي العدوان الجديد (عدوان ٦٧) ، أما (عدوان ٥٦) و(عدوان ٤٨) فقد أُضفيت عليه الشرعية - ونريد أن تعود الحدود إلى ما كانت عليه قبل ٥ يونيو ٦٧ .

ويا ليتنا وقفنا عند هذا ، بل رضينا بما دونه ، وكانت محادثات ومفاوضات (مديرد) التي انتهت إلى (اتفاق أوسلو) ، ولم يقبلوا تنفيذ (اتفاق أوسلو) ، فعقدوا اتفاقاً تنازلوا فيه عن (اتفاق أوسلو) وهو (اتفاق وايريفير) . ولم يقبلوا أن يُنفذوا (اتفاق وايريفير) ، فعقدوا اتفاقاً آخر في (شرم الشيخ) ، والآن لا يقبلون تنفيذ (اتفاق شرم الشيخ) .

هم لا يُنفذون ، ونحن نُنفذ ما تريد إسرائيل . إسرائيل تأمر ونحن نطيع ، تفرض ونحن نُسلم ، تطلب ونحن نُنفذ . ومع هذا نُهرول هنا وهناك ، نُهرول وراء إسرائيل ، وإسرائيل تعبت بالمنطقة ، حتى قال - بالأمس - قائد شرطة دبي : إن الموساد يريد أن يعبت باقتصاد دولة الإمارات ليَهزها هزاً ، ويحدث هزات اقتصادية فيها وفي دول الخليج ، ليرغمنا على التطبيع مع إسرائيل . هذا ما تفعله إسرائيل .

ومن عَجَب - أيها الإخوة - أن ترى دولة عربية هناك عند المحيط الأطلسي تطوّر علاقاتها مع إسرائيل إلى حدِّ تبادل السفراء!! أي : أن يكون هناك سفير إسرائيلي في موريتانيا ، ولموريتانيا سفير في تل أبيب!

ما دَخَلك يا موريتانيا ، وأنت بعيدة عن مناطق الصِّراع؟ ولكن إسرائيل تلعب هنا وهناك ، كانت تلعب قبل ذلك على الحلقات القوية : مصر والمغرب وغيرها ، الآن تريد أن تلعب على الحلقات الضعيفة ، تبحث عن أضعف الحلقات لتؤثّر فيها ، وتسخرها لإرادتها .

كيف يقبل بهذا بلد عربيّ مسلم ، ولا زالت المفاوضات سائرة ، ولا زالت إسرائيل ترفض أدنى الحقوق؟

علام يتفاوض الفلسطينيون مع إسرائيل؟ على كم من أرض فلسطين ، وأي نسبة من أرض فلسطين يتفاوضون عليها؟ وأين الدولة التي يراد إقامتها؟ ومن المتحكّم في هذه الدولة ، وفي أمنها ، وفي ممراتها وفي سمائها ، وفي مياهها؟ إسرائيل هي المتحكّمة في هذا كلّ .

ثم تأتي دولة عربية لتقيم لها سفارة في تل أبيب ، وإذا قالت إسرائيل بعد ذلك : إنّ القدس هي عاصمتها . تنتقل السفارات إليها ، ويصبح سفير موريتانيا لدى إسرائيل في القدس! هذا أمر عجّب ، ولكن الأمة إذا هانت - إلى هذا الحدّ - رأينا من هؤلاء من يخون أمته ، ويخون دينه ، ويخون موافقه ، ويفعل هذه الأفاعيل . وأسفاه على هذه الأمة .

وأسفاه على هؤلاء الحكّام الذين يهرولون بعضهم وراء بعض لإرضاء إسرائيل ومن وراء إسرائيل . خاب سعيكم ، وضلّ عملكم أيها الحمقى المغرورون ، ستجنون والله في الدنيا والآخرة جزاء ما صنعتم ، فإنّ الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يترك هؤلاء دون أن يعاقبهم : ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم: ٤١).

يا أيها الإخوة : هذه مصيبتنا نحن العرب والمسلمين ، مصيبتنا في الفجوة بين الشعوب والحكّام . الشعب الموريتاني لا يرضى بهذا ، ولكن الحكّام هم الذين يبرمون الأمور ، والشعوب لا تستطيع أن تفعل شيئاً .

ويُقضى الأمر حين تغيب تيمّ ولا يُستأذنون وهم شهود
عباد الله ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٦) .
﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٥) .

* * *